دار الشروق
عبد المنعم
أبو الفتوح
شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر
١٩٧٠- ١٩٨٤
تحرير: حسام تمام
تقديم: طارق البشري
الإخوان المسلمين

عبد المنعم
أبو الفتوح

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٣٦٤١/٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2776-5

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

عبد المنعم أبو الفتوح

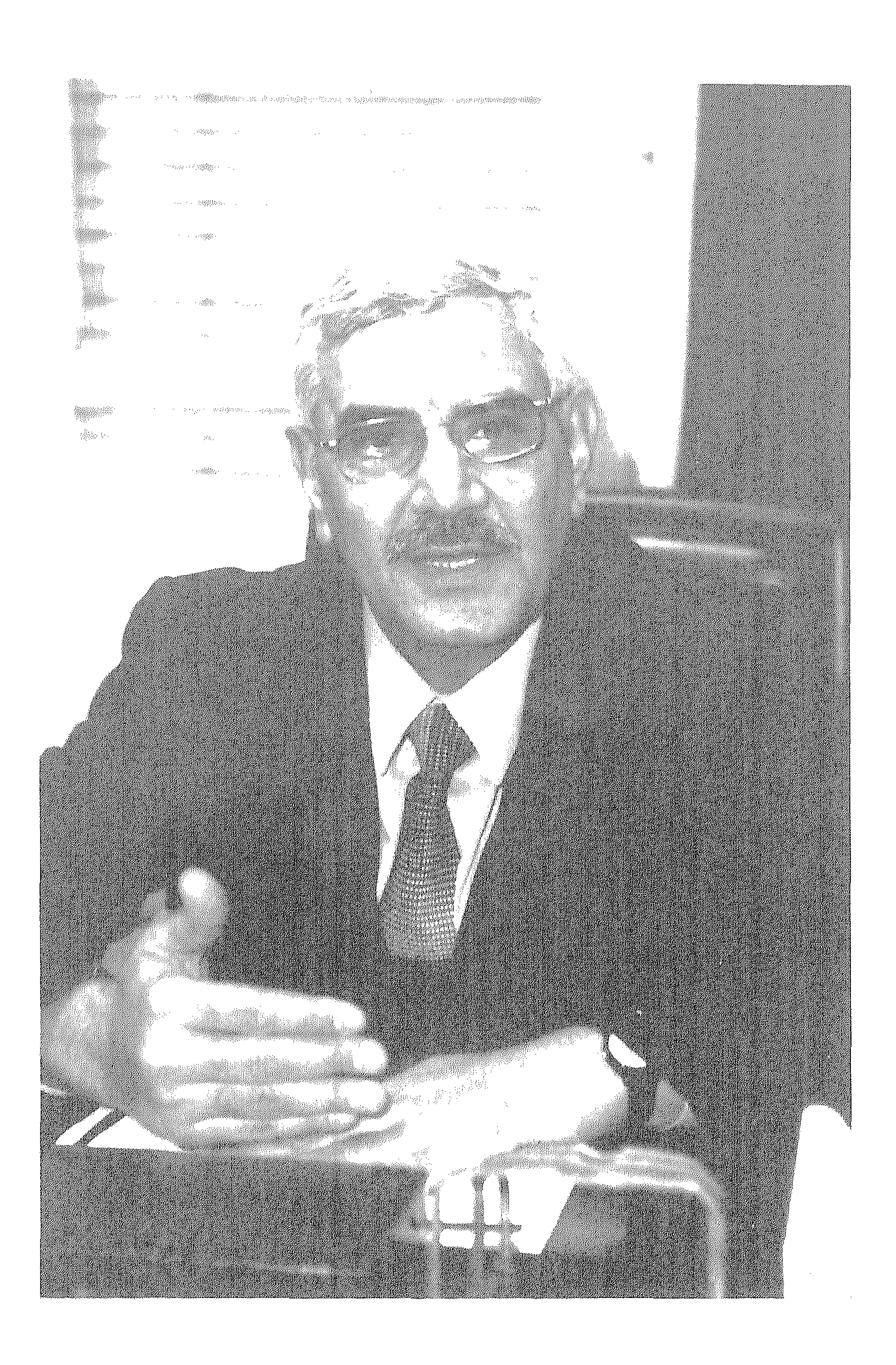
شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر

١٩٧٠- ١٩٨٤

تحرير: حسام تمام
تقديم: طارق البشري

دار الشروق

المحتويات



بين يدي الشهادة

الشخص والفكرة واللحظة التاريخية، هي ثلاثة عناصر تجعل من شهادة عبد المنعم أبو الفتوح على تأسيس الجماعات الإسلامية في سبعينيات القرن الماضي واحدة من أهم الشهادات على مصر المعاصرة.

فلأنه عبد المنعم أبو الفتوح أبرز القيادات الطلابية الإسلامية في جيله، ولأنها حركة تأسيس الجماعات الإسلامية في الجامعات التي تمثل واحدة من أهم مراحل العمل الإسلامي الحركي في تاريخ مصر، ولأنه جيل السبعينيات أقوى أجيال الحركة الطلابية المصرية وأكثرها حيوية وما زالت -إلى اليوم- تضخ الدماء في حياتنا السياسية التي تنازع الحياة؛ لأجل هذا كله تبدو هذه الشهادة مفتاحًا مهمًّا لفهم مرحلة مهمة في تاريخ مصر ما زلنا نعيشها أو نعيش بعض آثارها وما تركته فينا من تغيرات بعضها يبدو جذريًّا لم يعد ممكنًا تجاوزه؛ وأعني بها ظاهرة «الصحوة» الإسلامية التي تركت بصماتها على وجه مصر.

* * *

كان موضوع هذه الشهادة جزءًا من اهتمام أوسع بتاريخ الحركة الإسلامية أو على الأخص المسكوت عنه فيه، وكان اهتمامي ضمن مشروع شخصي لإعداد وتحرير «سلسلة وثائق وشهادات مجهولة في تاريخ الحركة الإسلامية» في مصر وخارجها تصلح كمصادر لكتابة تاريخ الحركة لاحقًا. كنت قد بدأت -قبل سنوات- البحث في التاريخ الحقيقي للحركة الإسلامية؛ تاريخ أتصوره يختلف عن التاريخ الرسمي

أو شبه الرسمي الذي تروجه الحركة عن نفسها وفي أوساطها، ويختلف بالتأكيد عما يكتبه خصومها.

وعلى أهميتها كانت حقبة السبعينيات من القرن الفائت (القرن العشرين) الأقل حضورًا في المدوّن من تاريخ الحركة الإسلامية، بل بدا لي أن ثمة رغبة أو اتفاقًا غير مكتوب على السكوت عنها، فأشخاصها ما زالوا على قيد الحياة؛ وفي خضم الفعل السياسي والدعوي؛ ولم يقرروا بعد الاعتزال، وقضاياها شائكة بحيث يفضل الجميع إيثار السلامة!

وحين بدأت البحث كان لافتًا أن أي حديث حول نشأة الجماعات الإسلامية في الجامعات والعمل الإسلامي عمومًا في هذه الفترة - السبعينيات- لا بد أن يمر بعبد المنعم أبو الفتوح، وأن كثيرًا ممن صاروا نجومًا في الحركة الإسلامية - ربما بحكم الصعود السياسي وإجادة الظهور الإعلامي، وربما بحكم التعويل على النسيان أيضًا - يشرقون ويغربون لكنهم ينتهون - رغمًا عنهم في بعض الأحيان - بالإقرار بمركزية دور أبو الفتوح في صناعة هذا التاريخ، فكانت محاولتي التأريخ لهذه الفترة عبر شهادة الرجل الذي كان له الدور الأبرز في صناعة تاريخ هذه الحقبة ورسم معالمها، وهي مصدر أصلي لا بد منه لكتابة تاريخ هذه المرحلة.

بعد إقناع احتاج زمنًا تعددت فيه لقاءاتنا (عبد المنعم أبو الفتوح وكاتب هذه السطور)، وامتدت على مدار عامين؛ كنا نتذكر تاريخ حركة تأسيس الجماعات الإسلامية في الجامعات، ليس كأحداث ووقائع وإنما كعملية تَشَكُّلٍ تاريخي لهذه الحركة من واقع تجربة وخبرة ذاتية للرجل يمكن - بقدر مقصود من التعميم - أن تنطبق على أبناء هذا الجيل «الفريد» في تاريخ الحركة الإسلامية والطلابية في مصر.

كان حديثًا ممتدًّا حول قضايا ومحطات لا يحب الإسلاميون في العادة تذكرها أو التعريج عليها: البيئة التي خرج منها هذا الجيل الذي أدرك نهايات الحلم الناصري وعاشه زمنًا قبل أن تصيبه فجيعة انكساره فتغير الحلم والمسار من الاشتراكية إلى الإسلامية، وروافد التدين التي تعددت ما بين التقليدي والأزهري والصوفي والسلفي والتبليغي والإخواني، بحيث انتهت إلى نموذج خاص للتدين لم يكن صناعة تيار

بعينه، وظل محتفظًا بخصوصيته حتى بعد أن انتمى للإخوان المسلمين، والصراعات المفتوحة بين التيارات التي كانت تموج بها الجامعة وقت أن كانت قلب الحياة السياسية، ومحاولات التوظيف في الصراع السياسي الأكبر بين السلطة ورموزها، والأسئلة التي سيطرت على عقل هذا الجيل بدءًا من الفنون واللباس وحتى الثورة وإقامة الحكم، والمسارات التي كان على الحركة الناشئة أن تختار بينها؛ بين الإخوان والسلفية والجهادية، والأحداث الكبرى التي عاشتها مصر والعالم الإسلامي من الفتنة الطائفية إلى معاهدة السلام إلى الثورة الإيرانية واحتلال أفغانستان... حتى اغتيال رأس الدولة!

إن شهادة عبد المنعم أبو الفتوح على قلة صفحاتها تصلُح أن تكون تاريخًا مختصرًا للتيار العام في حركة الجماعات الإسلامية في السبعينيات منذ أن انطلقت من كلية طب قصر العيني بجامعة القاهرة ومنها لبقية الجامعات المصرية، حتى شملت كل مصر ومنها لبلاد الوطن العربي الأخرى.

* * *

والحق أن عبد المنعم أبو الفتوح كان – كعادته –شجاعًا؛ ليس فقط بصراحته المعهودة التي تظهر في شهادته فتجعلها بسيطة وعفوية، بل وإنسانية تقر بالخطأ والنقص والضعف الإنساني؛ بل كان شجاعًا حين قَبِل أن يروي لي شهادته على حقبة وأحداث ما زال كل رموزها وفاعليها على قيد الحياة، وما زال هو في قلب الحدث في صدارة أكبر جماعة إسلامية وأهم تنظيم معارض في البلاد.. وإن هذا – لو تعلمون – كثير؛ لأن أصعب ما تتحاشاه الحركة الإسلامية أن تدوّن تاريخها، وأصعب منه أن تكتبه في حياة أصحابه؛ فساعتها تظهر الضغائن وما تخفي الصدور، خاصة حين يجيب الشاهد عن الأسئلة الحقيقية ويلتزم وجه الحقيقة لا ما يريده الآخرون!

لقد كانت معاناة ليس فقط في أن يتذكر الرجل أحداثًا ووقائع مضى عليها زمان، ولا أن يقول الحق دون أن يجرح زملاء وأصدقاء وإخوانًا له ما زال بينهم، بل كانت في أن يتكلم الرجل عن نفسه أيضًا.. وأشهد أنه يتحاشى ذكر نفسه في وقائع كبرى كان هو بطلها الأول وربما صانعها الوحيد، وإنني كنت من يضطره للحديث عن نفسه

بينما كان يصر على ذكر الوقائع والأحداث كما لو كان مجرد شاهد عليها وليس طرفًا فيها، وأنه لو تركت الرجل لنفسه ما قال كلمة واحدة فيها «أنا»!

وأذكر كيف كان يغالب نفسه ما بين محبته لدعوته ولإخوانه وما بين حرصه على التزام الحقيقة وإعطاء كل ذي حق حقه خاصة فيما يتصل بالعلاقة بين الجماعة الإسلامية في الجامعات وبين قيادات الإخوان المسلمين، وهي مساحة شائكة وبالغة الحساسية ويصعب الحديث فيها خاصة عند محاولة تبين طبيعة العلاقة ووزن فعل وتأثير كل منهما في الآخر وفي الحالة الإسلامية عمومًا.. وأذكر أنه انطلق مرة في الحديث على سجيته ثم أوقفته دموع وعبرات سرعان ما كتمها.. كانت المرة الأولى فيما أعرف التي يبكي فيها الرجل تأثرًا.

* * *

تحت عنوان «شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر: من الجماعة الإسلامية إلى الإخوان المسلمين» تغطي شهادة عبد المنعم أبو الفتوح حقبة تمتد من ١٩٧٠ وتتوقف عند ١٩٨٤، إنها الفترة التي شهدت تأسيس الجماعات الإسلامية كحركة إسلامية مستقلة وعفوية ومتعددة الروافد والمشارب، حتى تمايزت إلى تيارات ثلاثة اختار منها التيار الأوسع والأكثر تسييسًا الانضمام للإخوان المسلمين، بينما تمايز على ضفتيه تياران؛ تيار دعوي (الدعوة السلفية) كان معقله الأكبر في الإسكندرية، وتيار آخر جهادي (الجماعة الإسلامية) كان معقله الصعيد، إنها مرحلة متكاملة اخترنا (صاحب الشهادة ومحررها) أن تبدأ مع عام ١٩٧٠ الذي شهد التحاق رموز هذا الجيل بالجامعات وهو نفسه عام وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وأن تنتهي مع عام ١٩٨٤ الذي حسم فيه الإخوان خيار العمل السياسي السلمي كمنهج للتغيير؛ وذلك بإقرار تحالفهم مع حزب الوفد وخوضهم الانتخابات النيابية معًا، أي أن الشهادة تغطي حقبة تبدأ من النواة الأولى للجماعة الإسلامية بالجامعات إلى بدء معالم الاندماج كاملاً داخل الأطروحة الإخوانية التي كان عنوانها الأكبر قد اتضح في هذه الفترة وهو تبني خيار المشاركة في العملية السياسية السلمية والعمل من داخل

النظام وهي الأطروحة التي استقر فيها القطاع الأوسع من الجماعة الإسلامية خلافًا للسلفيين منهم والجهاديين.

هذا مع التأكيد، بالطبع، على أن هذه المرحلة/ الشهادة قد تبكر أعوامًا لتبدأ ربما مع هزيمة يونيو ١٩٦٧، كما تمتد لسنوات أخرى هي التي احتاجها التئام الجماعة الجديدة في جماعة الإخوان التي أعيد إحياؤها اعتمادًا على هذا الكيان الجديد الذي كان أشبه ببيت مشيد سكنه الإخوان الخارجون من سجون الحقبة الناصرية، وهي السنوات نفسها التي ربما كان يحتاجها التطور اللازم للأطروحة الإخوانية بعد الحسم المبدئي لخيار المشاركة والتغيير من داخل النظام.

والخلاصة الأساسية التي سينتهي إليها من يقرأ هذا التاريخ ويتأمله هو أن حركة الجماعات الإسلامية في الجامعات في السبعينيات كانت تأسيسًا جديدًا ومختلفًا للحركة الإسلامية في مصر، وقد كان عبد المنعم أبو الفتوح في طليعة من قادوا التأسيس الثاني للحركة الإسلامية بعد التأسيس الأول الذي قام به الإمام الشيخ حسن البنا.

* * *

لقد كانت حركة الجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية حركة ذاتية مستقلة؛ فقد نشأ طلاب الجماعات الإسلامية نشأة دينية مستقلة تأثرت بروافد ورموز شرعية وفكرية مختلفة، ولم يكن لتيار بعينه أو جماعة بعينها التأثير الأوحد أو الغالب فيها حتى ولو كان الإخوان المسلمون الذين نجحوا لاحقًا في إقناع القطاع الأكبر من حركة الجماعات الإسلامية بالالتحاق بهم.

لقد كانت التعددية الفكرية والشرعية ملمحًا أساسيًّا في تشكل هذه الحركة بحيث يصح القول إن هذا الجيل مختلف عن سابقه من أجيال الحركة الإسلامية، وهو ما يعيد النظر في مقولة «النقاء الإخواني» التي يرددها الإخوان؛ فإذا كان الجيل الأول «بنَّاويًّا» خالصًا (نسبة للمؤسس الشيخ حسن البنا) فقد حمل جيل الستينيات وربما الخمسينيات أيضًا تأثيرات «قطبية» (نسبة للأستاذ سيد قطب) جعلته مختلفًا عن

سابقه، بينما انفتح جيل السبعينيات على مؤثرات ومدارس فكرية وشرعية أكثر فكان أبعدها عن الفكرة الإخوانية النمطية.

وكانت حركة الجماعات الإسلامية ذاتية ومستقلة أيضًا بإزاء الحالة السياسية السائدة في السبعينيات واستقطاباتها، نعم شهدت تسامحًا، بل ربما تشجيعًا في بعض الأحيان من السلطة الساداتية؛ لكنها ظلت تعبيرًا عن تحول جذري تصعب صناعته بقرار من السلطة، فالتيارات الجماهيرية تصعب صناعتها بقرار تمامًا كما يصعب استئصالها بقرار، وهو ما حدث فيما بعد.. فليس بقدرة السلطة اليوم أن تعيد اليسار أو تفسح لليبرالية وجودًا في الشارع وبين الجماهير ما لم يتوفر الشرط التاريخي الذي لا يصدر بمرسوم منها، لقد كانت حركة الجماعات الإسلامية تلبية لأشواق وإجابة عن سؤال الشباب في هذه المرحلة، وهي إجابة كانت تحمل من العفوية والبساطة الصدق الذي يفتح لها الطريق للناس، والخفة التي تقع بها في أكثر الأخطاء حماقة كما جرى في تحول قطاع منها للعنف والانقلاب على الدولة والمجتمع.

* * *

ومن يتأمل هذا الجيل – السبعينيات – سيجد أنه مختلف في تكوينه ووعيه ومزاجه عن غيره أيًّا ما كان التيار الذي ينتمي إليه، وهو ما يصدق بحق جيل السبعينيات في الإخوان كما في اليسار والناصريين أيضًا، ثمة سمات مشتركة تجعلنا نقول إن أبناء هذا الجيل لهم طابع خاص في الإخوان يميزهم عن غيرهم من الأجيال في جماعة امتازت عن غيرها بقدرتها على توريث الدعوة والتنظيم دون صراعات أو حتى خلافات بين الأجيال.

ورغم كل عمليات الصهر والتذويب والإحلال والتبديل التي تعرض لها جيل السبعينيات الذي أسس الجماعات الإسلامية بالجامعات بعد دخوله في جماعة الإخوان، ما زال بإمكاننا الحديث عن جيل السبعينيات في الإخوان وهو ما يصعب تكراره بحق أجيال أخرى ذابت بالجماعة ولم يعد ممكنًا تعريفها جيليًّا!

إنه الجيل الذي نشأ في لحظة نادرة من الحرية والوعي لم تتكرر كثيرًا في تاريخ العمل

الطلابي، لقد عرف أبناء هذا الجيل المعارك بل الحروب الإيديولوچية والسياسية، وشهد أكبر الاستقطابات وأشدها سخونة، لكنه ظل قادرًا على العمل المشترك وتجاوز التمترسات في الخنادق التنظيمية والإيديولوچية، وحين تشكّلت حركة عابرة للتيارات والتنظيمات السياسية مثل «كفاية» كان قوامها أبناء هذا الجيل من كل التيارات، فكان فيها عبد المنعم أبو الفتوح وعصام العريان، وكان فيها أحمد بهاء شعبان ومحمد السيد سعيد، وكان فيها حمدين صباحي وأمين إسكندر.. وكان فيها من التنوع السياسي والإيديولوچي في جيل السبعينيات ما لا نجده في غيره من الأجيال.

* * *

إن فرادة هذا الجيل عمومًا وتمثلاته الإسلامية بشكل خاص هي ما جعلت من «عبد المنعم أبو الفتوح» رمزًا وطنيًا يمكن أن يتفق معه ويجتمع عليه أبناء تيارات وحركات إيديولوچية وسياسية مختلفة، وهو ما لا يتكرر كثيرًا بحق معظم نظرائه من الإخوان المسلمين، الذين لا ينظر إليهم الرأي العام بأبعد من كونهم «إخوان» وليسوا شخصيات إجماع وطني كأبي الفتوح.

قد تبدو هذه المقارنة قاسية ومؤلمة على نفس الكثيرين من الإخوان؛ لكنه مما يفتح الباب واسعًا ليسأل الإخوان أنفسهم: لماذا تحولوا إلى ما يشبه طائفة كبيرة وليس تيارًا عامًّا وحاضنا في المجتمع المصري؟ وأحسب أن حالة أبي الفتوح يمكن أن تقدم بعضًا من الإجابة.

إن عبد المنعم أبو الفتوح وهو يتحدث - مثلًا - عن تأثره بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر وبكائه عليه يوم وفاته، يعلن أنه وأبناء جيله من حركة الجماعة الإسلامية في السبعينيات استمرار لتراث الحركة الوطنية المصرية وليس انقطاعًا عنها، وأنه يمكن أن يتجاوز عن الخلاف ما دام أنه في إطار الانتماء للوطن ولم يخرج عنه، ومن ثَمَّ فهو يعود بالحركة الإسلامية إلى صلب المشروع الوطني المصري بعد أن تعالت عليه حينا من الدهر، وكان حقًّا على الجماعة الوطنية أن تبادله الطيب بمثله.

* * *

وأخيرًا؛ لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر إلى كل من قدَّم لي العون في مراحل إعداد هذه الشهادة وتحريرها، كثيرون هم، بحيث أخشى أن أذكر بعضهم وأنسى آخرين، لكن لا أستطيع إلا أن أذكر الدكتور هشام الحمامي مدير المركز الثقافي لاتحاد الأطباء العرب الأخ والصديق الذي تكرم بملاحظات بالغة الأهمية، وكذلك الأستاذ والباحث اللغوي والتاريخي المدقق محمد عبد اللطيف الذي راجع الشهادة في مراحل مختلفة حتى الْتَأَمَتْ نصًّا كاملًا.

والله ولي التوفيق

حسام تمَّام

تقديـم

الكتابة التي بين أيدينا هي شهادة عن الحركة الإسلامية في خمس عشرة سنة، وهي سنوات البداية أو سنوات إعادة التشكُّل الفكري الثقافي والحركي التنظيمي لها.

وهي شهادة بمعنى أن الذاكر لها لديه اطلاع مباشر عليها ورؤية ذاتية لها، وهو يتحدث عما وقع تحت بصره أو جال في مجال سمعه المباشر وفي إطار ما شارك فيه من أحداث، أي في حدود ما له به صلة معرفة مباشرة. وصاحب الشهادة هنا رجلٌ نعرفه ويعرفه المتابعون، وهو أحد من صنعتهم هذه الحركة وأحد من صنعوها في ذات الوقت، ولد مع مولدها، ونما مع نموها، ونضج مع نضجها والتأم شمله الفكري والحركي مع التئام شملها فكرًا وحركةً.

والكتاب شهادة على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر من بدء السبعينيات إلى منتصف الثمانينيات، وهو مزج بين أحداث التاريخ الموضوعية وبين السيرة الذاتية للشاهد، وقد جاءت بطريقة يَغْبِط الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح عليها كلَّ من يحاول محاولة شبيهة، لأن رواية الراوي جاءت بطريقة لا يستطيعها إلا شخص رَاضَ نفسه على قدر من إنكار الذات كبير، فهو يضع نفسه ونشاطه وأحزانه الذاتية في سياق الحركة التاريخية العام، ويضع نفسه جزءًا منها وعنصرًا فيها، وكاد أن يبلغ الأمر لديه أنه يحول بين القارئ وبين نفسه إفراطًا منه في البعد عن شبهة الذاتية.

إن الكثير من كُتّاب السيرة بسبب أنهم يتحدثون عن الأحداث من خلال ذواتهم، يميل بهم سياق الرؤية الذاتية وتدافع الشعور بالنفس إلى كثرة الحديث عن الذات وما قالت وما فعلت وما شجّعت وما ثبّطت وما دُفعت إليه وما مُنعت منه، لأن الكاتب هو موضوع الكتابة، فتمتزج الذات بالموضوع بقدر من غلبة الذات على الموضوع. ولكننا هنا نلحظ أن الشاهد عن غيره أكثر كثيرًا جدًّا مما يكتب عن نفسه، ويتكلم عمن أثروا فيه من كتاب وقادة بحسبانه واحدًا ضمن من أثّروا فيهم وأعطوهم، ويكثر في ذلك دون أن يتحدث أي حديث عمن أثّر هو فيهم وأعطاهم.

لقد أفلت الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح من التداعيات التلقائية لكتابة السير الذاتية، وللشهادة من خلال الرؤية الشخصية لحركة تاريخية موضوعية، أفلت من ذلك بما نشأ عليه وتربى، وهو بذلك مَثَلٌ واضح لأهمية التربية الدينية في «ذم» النفس ذمًّا ما عند التصدي للأمور العامة، وهذا بالضبط ما صرنا نحتاجه احتياجًا شديدًا في حياتنا العامة وفي تربيتنا القومية على صعيد المجتمع ككل، وهذا بالضبط هو الإحياء الخُلُقي الذي لا تحرير نرجوه ولا نهضة ولا تنمية ولا تقدمًا ولا نجاحًا في أمر عام إلا بعد التخلي به ممن يمارسون صنيعًا يستهدف تفيّق هذه المقاصد.

تبدو لي أهمية هذه الشهادة في أنها تضع أيدينا على ثابت الحركة الإسلامية الحالية - من أي روافد فكرية إسلامية تكونت، وبأي عناصر حركية تشكلت؟ - ونحن نلحظ من روايات الراوي أنه بالنسبة لهذه الحركة المعاصرة، فإنه في البدء كان الشباب، من شباب الجامعات الذين سبقت تطلعاتهم الإسلامية تشكيلهم الحركي في تنظيمات أكاد أقول إنها بدأت حركة شعبية شبابية تلقائية لشباب لم يعد يكفيه الفكر السياسي الوطني السائد، وذلك بعد نكسة ١٩٦٧، فعاد يفتش في الجذور، وهو سيجدها دائمًا فيما يسميه مالك بن نبي بالفكرة المجرّدة، أي الفكرة التي يكون لها من العموم والشمول والانتشار ما يجعلها قائمة بين الناس بذاتها، بغير حاجة إلى زعيم بعينه يدعو لها أو حزب أو مؤسسة بعينها تروجها أو دولة تقوم عليها، وذلك لأنها سرت مسرى الدماء في شرايين الأمة وشكّلت أساسًا ثقافيًّا

يمارس الناس تفاريعه ويتحاكمون بقواعده في سلوكياتهم وتقويماتهم الجارية، وكأن هذا هو الإسلام عقيدة وثقافة وهو فكر موجود ومنتشر بتفاريع ومذاهب وكتابات في التاريخ والقانون والمجتمع والأخلاق والسياسة، وباجتهادات متنوعة وفيه القديم وفيه الحديث، وفيه الراجعي وفيه المستقبلي بنسب وتقارير من الصواب والخطأ واليقين والظن والشك لا حدود لها. وأنت لن تجتهد للبحث عنه، بل ستجده بجوارك وفي بيتك بل ستجده داخل نفسك بما تربيت عليه من صغرك واستقر في وعيك.

سنجد في الروافد الأولى فكرًا إسلاميًّا يظهر من البيئة المصرية من ذوي الأهوال الممتدة من جماعة الإخوان المسلمين في خمسينيات القرن العشرين، مثل الشيخ محمد الغزالي، والدكتور عبدالمنعم أبو الفضل، والشيخ سيد سابق، والأستاذ البهي الخولي، وسنجد فكرًا إسلاميًّا ممتزجًا بالصوفية مثل الشيخ عبد الحليم محمود. كما أن ثمة فكرًا مصريًّا ذا أصول سلفية يأتي من الجمعية الشرعية منذ عهد بنشأتها الشيخ محمود خطاب السبكي، ومن جمعية أنصار السنة المحمدية ذات التوجه السلفي، وكذلك سنجد الرافد الوارد من السعودية بغزارة شديدة حاملًا الفكر الوهابي السلفي، فضلًا عن شريحة واسعة من المفكرين من أبي الأعلى المودودي إلى مالك بن نبي، شرقًا وغربًا ومحافظة وتجديدًا. وهذا كله يموج بعضه في بعضه من جيل جديد من الشباب.

ثم يرد بعد ذلك دور الإخوان المسلمين بعد خروجهم من السجون، بفكرهم التقليدي السابق الناتج من البيئة المصرية، وبتجاربهم التنظيمية الحركية، وهم على فرعين: فرع يرد من التنظيم الخاص للإخوان بانضباطه وخبراته في التشكيل والتنظيم، وفرع يرد من الساحة الإخوانية للدعوة بمرونتها وسلوكها الفضفاض.

وتكشف لنا هذه الشهادة عن نماذج من هذا اللقاء التاريخي الفريد بين حركة شباب إسلامي تلقائية وبين كوادر تنظيم قديم مخضرم، بين جيل ثابت لا يزال يتفتح وجيل أدرك عهدين وخاض تجربتين، ونحن هنا أمام كيانين لكل منهما ذاتيته المتميزة، حتى

وإن كان أحدهما أحدث خبرة وأصغر سنًّا، بمعنى أن هذا الجيل الشاب عندما يقترن بالحركة القديمة إنما يحمل لها تغييرات وتعديلات من ناحيته، ولا يكون فقط منفعلًا بها متلقيًا عنها تلقيًا سلبيًّا، إنما هو محاور ومجادل بحكم ما لديه من ذاتية، ولذلك فإنه عند الامتزاج عدّل كل منهما عند صاحبه.

وبالجملة فقد أنقذ جيل الإخوان الآباء جيل الشباب من السلفية الواردة من الخارج، وغذى جيل الشباب وحمّل الأقدم بخبرة حركة طلابية طليقة من الناحية التنظيمية، وهي خبرة تمت بعد ذلك في حركة نقابية مهنية كان لها أثر بعيد للجيل القديم أشاع الوسطية والاعتدال لدى الشباب الذي انحاز له، والجيل الثابت استطاع أن يخرج الجيل السابق إلى حد كبير من الآثار العميقة لمحنة السجن طويل المدى وما حدث به، وأثر ذلك في الفكر والعمل من بعد.

بقيت نقطة أستحسن الإشارة إليها لا لدلالتها الماضية ولكن لعبرتها المستقبلية، فنحن نعرف من هذه الشهادة أنه مع تنوع قراءات الشباب في الفكر الإسلامي الذي كان ذائعًا في السبعينيات، فإن كتابات الشيخ محمد الغزالي هي مما بث فيهم الوعي العملي بالإسلام كمشروع حضاري، وهذا معنى دقيق لأن كتابات الشيخ الغزالي - رحمه الله - هي من أنضج ما كُتب من فكر سياسي بمنظور إسلامي في هذه الفترة، وهو في ذلك يفرع على مدرسة حسن البنا في هذا الشأن، ومن هذا المنظور نعرف أثر كتابات أمثال البهي الخولي وسيد سابق، وكل هؤلاء كانوا من الإخوان المسلمين.

وما أريد أن أوضحه أن الشيخ الغزالي وفريقًا آخر كانوا ممن اختلفوا مع قيادة جماعة الإخوان المسلمين في موقف هذه القيادة من ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢، وابتعدوا عن الخصومة الحادة التي قامت وقتها بين نظام ثورة ٢٣ يولية وبين جماعة الإخوان، وظلوا ناشطين فاعلين متمرسين فيما بذلوه من جهود فكرية وما طوروه من فكر وما جددوا به وما دافعوا عنه من قضايا الإسلام المعاصر، فظلوا أمناء على رسالتهم يقومون بها بكل ما منحهم الله من قدرة، وكان من آثارهم ما أودعوا عقول شباب السبعينيات الإسلامي. ترى لو كان اتجاههم هو ما غلب في موقف الإخوان وقتها.

أما كانوا يشكّلون قوة أعظم للمزج بين الحركة الوطنية وعمقها الإسلامي في دعم الموقف الوطني وتصحيح ما يحتاج إلى تصحيح.

نحن هنا لا نبكي على اللبن المسكوب، ولكننا نشير إلى دروس الماضي لنعتبر بها في المستقبل - إن شاء الله - مستقبل العلاقة بين القوى الوطنية جميعها.

إن شهادة الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح تثير الشهية للتفكير والبحث.

والحمـــد لله

طارق البشري

الفصل الأول

النشأة والتكوين

على سبيل البدء

ولدت في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٥١ لأسرة متوسطة الحال في حي المنيل بمنطقة مصر القديمة، كان ترتيبي الثالث بين خمسة إخوة كلهم ذكور. تفتح وعيي والمشروع الناصري في أوْجه. كان جمال عبد الناصر بالنسبة لنا المثل الأعلى والزعيم المخلص، كان حضوره يملأ حياة الناس ويحجب غيره، وكانت صورته دائمًا أمام عيني وعين الأطفال والناشئة من أبناء جيلي، فقد كان رمزًا لكل شيء جميل وكان رمزًا للفخر والاعتزاز حتى كنا - ونحن أطفال - إذا تفاخر عليَّ أحد زملائي أرد عليه مستنكفًا فأقول له: هُوّ إنت أبوك جمال عبد الناصر؟!

كان الناس يعشقون «ناصر» حتى كانوا يحفظون خطبه، فقد كان الرجل - بالفعل - صاحب فضل على كثير من الناس، حتى إن أبي كان يعتبر تعليمي المجاني من فضائل جمال عبد الناصر ومكارمه، وكان قد استفاد قبلها من قانون الإصلاح الزراعي، فقد كان من أسرة فقيرة من مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية (وسط الدلتا) ثم تحسنت أحوالها وأصبح كل واحد من أعمامي يملك خمسة أفدنة بعدما كانوا لايملكون شيئًا.

كانت لجمال عبد الناصر مكانة كبيرة لدى أسرة والدي، بل أستطيع القول إنه كان سبب نجاح زواج أبي من أمي، فقد كانت أمي من عائلة إقطاعية كبيرة قبل الإصلاح

الزراعي، ولم يكن ممكنًا أن يقوم بينها وبين عائلة والدي البسيطة علاقة طبيعية لولا قانون الإصلاح الزراعي، لقد تضررت عائلة أمي كثيرًا من إصلاحات جمال عبد الناصر فأصبحت متوسطة الحال... لكن أحدًا من الذين تضرروا لم يكن قط يجرؤ على الكلام في هذا الأمر أو انتقاده.

في الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، كانت الحرب وكنت وقتها لا أفارق جهاز الراديو فلم يكن لدينا جهاز تليفزيون مثلنا مثل كثير من الناس رقيقي الحال، كنت لا أرفع الراديو عن أذني، أستمع إلى صوت المذيع الشهير الثائر أحمد سعيد الذي لا يتوقف عن نقل وقائع الانتصارات الباهرة!! أو إحصاء عدد طائرات العدو التي تتساقط كل يوم بل كل ساعة وربما كل دقيقة!! وانتصار قواتنا الباسلة، بقينا أيامًا نعيش انتصارات وهمية، ثم إذا بنا أمام الهزيمة لنكتشف أن كل ما عشناه من انتصارات كان كاذبًا وملفقًا، وأننا بدل أن نحتفل بالنصر الكاسح فإننا تجرعنا علقم الهزيمة المنكرة.

ومن الإنصاف أن نقول إن جيشنا لم يهزم، فهو لم يحارب أصلًا بسبب حالة الفساد والانهيار التي كان يعيش فيها بفعل القيادات السياسية والعسكرية الفاسدة حتى انتهى الأمر بهذا الوضع المؤلم.

ذقنا مع الهزيمة - ربما لأول مرة - مشاعر الذل والانكسار؛ انكسار الحلم والثورة، وأصاب الناس زلزال شديد ليس بسبب الهزيمة وإنما بسبب مشاعر العزة والقوة التي كانوا يعيشونها وبسبب حالتي النشوة والطموح الكبير اللذين أوجدهما جمال عبد الناصر ومشروعه الثوري الذي كان يسعى لتغيير وجه مصر والمنطقة بل العالم كله، ولا ننسى سطوة الإعلام المصري وقتها الذي نجح في أن يجعل من «ناصر» الزعيم الملهم لكل مصر بل لكل الأمة العربية، وكذلك إبرازه لعدد من المشروعات الكبرى التي جعلت الناس يحبونه بصدق.

وبقدر ما كان الحلم كبيرًا كان انكساره مؤلمًا، وكانت «النكسة» صدمة عنيفة للناس. ولدت حالة من الرجوع إلى الله، وجعلت الناس تتجه إلى ارتياد المساجد، واللجوء إلى التمسك بالدين، والعودة العميقة إلى الله، وفي هذه الفترة كنت أواظب

على الصلاة بحكم نشأتي في أسرة متدينة تدينًا فطريًّا، وكنت وقتها طالبًا في المرحلة الثانوية وكنت أواظب على أدائها في المسجد المجاور لمنزلي، وكان يتبع للجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة. أتذكر وقتها أن عدد المصلين كان قليلًا، ولكنه بدأ يتزايد بعد النكسة، ربما تعبيرًا عن حالتي الحزن والانكسار.

لم يكن في هذه الفترة أثر أو إشارة إلى أي مظاهر لنشاط إسلامي سياسي، فقط كانت هناك بعض الأنشطة التقليدية مثل دروس الفقه والتفسير أو التعريف بالتراث، وكانت تخضع لرقابة صارمة. وكانت هذه النشاطات لجمعيات وأفراد ممن يهتمون بتعليم الناس العبادات ويحثونهم على التزام الأخلاق وتزكية النفس، وكان من أهمها الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة وجماعة أنصار السنة وعدد قليل من الجمعيات الدينية لم تطلها حملة النظام الناصري على الإسلاميين.

لم يكن أحد – وقتها – يستطيع أن يتعرض للنظام بنقد، حتى إنه لما وقعت الكارثة وهزمنا في ٥ يونيو لم يستطع أحد أن ينتقد ما حصل من هزيمة وما سبقها من خداع وتضليل، ظل ذلك حتى قام طلاب الجامعات بمظاهرات ١٩٦٨ الشهيرة التي طالبوا فيها علانية بمحاكمة المسئولين عن الهزيمة.

وكان من آثار الهزيمة أن بدأ النظام الناصري في تخفيف قبضته الأمنية الشديدة عن الناس، فبدأت الدروس الدينية في الانتشار، وبزغ عدد من العلماء الذين نشطوا في هذه الفترة من أواخر الستينيات واستقطبت دروسهم الجماهير وفي مقدمة هؤلاء العلماء كان فضيلة الشيخ محمد الغزالي الذي كان خطيبًا لمسجد عمرو بن العاص أقدم مسجد في مصر وإفريقيا، ثم الشيخ سيد سابق الذي بدأ يعود للحياة العامة بقوة في أوائل السبعينيات، وانتعشت المساجد بعد أن ارتفعت عنها القبضة الأمنية أكثر حين مات الرئيس جمال عبد الناصر في سبتمبر عام ١٩٧٠.

بعد انهيار الحلم الناصري في نفوس الجماهير حلت حالة من عدم اليقين أو الثقة في كل ما له صلة بالنظام، وبدأنا نفكر في أن كل من كان ضد جمال عبد الناصر كان على صواب وعلى حق، وأعتقد أن هذه كانت البداية في التعرف على الإخوان المسلمين.

على المستوى الشخصي كنت في أوائل المرحلة الثانوية أثناء نكسة ١٩٦٧ وكنت مثل غيري أقرأ في الصحف وأسمع في الإذاعة كل ما هو سيئ عن الإخوان المسلمين، وكنا نصدق هذه الدعايات؛ فالإخوان كانوا ضد الزعيم البطل الذي نعتز به ونحبه، كما لم تكن حولي دائرة إخوانية؛ كما لم يكن أبي من الإخوان.

ولكن نكسة ١٩٦٧ أحدثت تغييرًا جذريًّا حيث جعلتنا نقول إن هذا البطل الذي ثبت أن أحلامه ومشروعاته كانت وهمًا يمكن أن يكون قد خدعنا فيما قاله عن الإخوان، وكانت دعايات الإعلام الناصري وقتها تروج أن الإخوان كانوا يدبرون لهدم القناطر الخيرية وقتل أم كلثوم... وتنسب لهم تهمًا بدت لنا فيما بعد مضحكة وشديدة البهتان... فلماذا يهدم الإخوان القناطر الخيرية؟! وما الفائدة التي يمكن أن يحصلوها من قتل أم كلثوم التي كانت تحظى بشعبية هائلة ومحبة بين الشعب المصري؟!

لقد تراجعت قدرة الدعاية الناصرية بعد نكسة ١٩٦٧ بشكل كبير؛ فبدأ الناس يعيدون التفكير ويراجعون الكثير مما كان شائعًا، وقد ساعد على تلك المراجعات حالة العودة إلى الدين ورفع الدولة يدها عن المساجد، وبدأت تتغير الصورة التي كانت عن الإخوان وصارت قناعة تترسخ يومًا بعد يوم أن ما كان يقال في حق الإخوان هو محض كذب وافتراء، وأنهم أناس شرفاء لهم أغراض نبيلة، وقد دفعوا ثمنًا باهظًا بسبب خلافهم مع جمال عبد الناصر... وبدأت صورة جديدة تنتشر عن الإخوان لم يكن يمكن التفكير بها قبل نكسة ١٩٦٧.

أتذكر أن شيئًا من هذا حدث على مستوى المسجد الذي كنت أصلي فيه في جمعية أنصار السنة بعابدين، فقد تغيرت نظرتنا للإخوان إلى الأفضل. كان البعض ممن يعرفون الإخوان أو سبق لهم التأثر بهم أو حتى كانوا إخوانًا أفلتوا من قبضة النظام ولم يُعتقلوا؛ كانوا قد بدأوا يتحدثون ويغلون صوتهم يومًا فيوم فتراجعت الصورة السلبية التي حاول النظام الناصري غرسها في نفوس الشباب نحوهم.

وكان الشيخ البحيري شيخ مشايخ الجمعية الشرعية وقتها من أبرز من ساهموا في تغيير صورة الإخوان إلى الأفضل في هذه الفترة على الأقل فيما يتصل بالمحيط

الذي كنت أنتمي إليه وأتحرك فيه... لقد بدأ الرجل يدافع عن الإخوان ويقول عنهم إنهم أناس طيبون أرادوا بناء مصر وأرادوا الخير لشعبها لكنهم اصطدموا بجمال عبد الناصر.

تغيرت صورة الإخوان في خيالي على نحو انقلابيّ، وصاروا نموذجًا للتضحية والفداء من أجل الوطن، ولكن صورة الإخوان كأصحاب مشروع للنهضة تأخرت إلى ما بعد دخولي الجامعة في بداية ١٩٧١ حين أصبحت مهمومًا بالوطن، والطريف أنني دخلت الإخوان المسلمين عبر البوابة الوطنية، وقد كان أول من تعرفت عليه من الإخوان رجل صوفي (أستاذي الدكتور عبد المنعم أبو الفضل)، ورغم تتلمذي عليه فلم يكن تكوينه الصوفي متفقًا مع تكويني، كان - رحمه الله - إخوانيًّا متصوفًا ولكنني قبلت إخوانيته ورفضت صوفيته.

نشأت نشأة بسيطة في عائلة متواضعة كان لها دور في مواجهة الإقطاع بقرية قصر بغداد في مدينة كفر الزيات بمحافظة الغربية، كان الإقطاع في قريتنا ممثلًا في شخص اسمه أبو الفتوح فودة؛ وكان أحد كبار الإقطاعيين الذين يثيرون الرعب في قلوب الفلاحين، وكان يركب «الحنطور» ويسير في القرية فلا يجرؤ أحد على الظهور حتى يمر موكبه، ولكن كان لي عم جريء وشجاع - أصغر إخوته - يرفض أن يجري كما يجري الآخرون ولا يختبئ كما يختبئون، وكان دائم التعبير عن سخطه على هذا الإقطاعي ورفضه لظلمه، وكثيرًا ما كانت تحدث احتكاكات بينه وبين هذا الرجل صاحب الجاه والسلطان على الرغم من كون عمي رجلًا بسيطًا ليس لديه الجاه... من هذا ربما ورثت كراهية الظلم والجبروت والاستعلاء على الناس.

وأذكر أنني تأثرت بعمي هذا كثيرًا في طفولتي، وقد تعلمت منه ألا أخاف من سطوة الكبار ولا أتردد في مواجهتهم، ورغم أنني كنت ممن خرجوا في المظاهرات بعد النكسة وخطاب التنحي يطالبون الزعيم جمال عبد الناصر بالبقاء إلى حد أنني بكيت خوفًا من ذهابه، إلا أنني سرعان ما صرت غاضبًا منه حانقًا عليه بمجرد أن اكتشفت الوهم الكبير الذي كنا نعيش فيه، وفي أول زيارة لي إلى قريتنا كنت أصلي

الجمعة فما إن وقع بصري على صورة للزعيم ناصر معلقة بالمسجد حتى انتفضت غاضبًا ورفعتها رغمًا عن معارضة أهالي القرية وكبارها الذين هالهم أن أتجرأ على جمال عبد الناصر.

ورغم أن نظرتي تغيرت تمامًا عن جمال عبد الناصر فلم تصل يومًا إلى تكفيره، فقد كنت أرى أنه من الصعب أن نقول إن جمال عبد الناصر كان ضد الإسلام أو عدوًّا له كما كتب البعض، وما زلت أرى أن الصراع بينه وبين الإخوان كان صراعًا سياسيًّا في الأساس بدليل أنه استعان بالعديد من رجالهم في بداية الثورة كوزراء مثل الشيخ الباقوري والدكتور عبد العزيز كامل... أما ما قيل عن عدم التزامه الديني فيبقى كلامًا غير موثق.

وحتى بعد وفاة جمال عبد الناصر وفي النصف الثاني من السبعينيات لم أكن أتابع ما تنشره المجلات والصحف التي فتحت ملف كراهية عبد الناصر للإسلام وما كان يحدث في المعتقلات من تعذيب، كنت لا أحب ذلك رغم قناعتي بأنه ظلم الإخوان، رغم تقديري لمعاناة الإخوان وما لاقوه من عنت واضطهاد وتفهمي لمشاعرهم تجاه الرجل... وكنت أرى أنه من الطبيعي أن أسمع قول أحد أساتذة الجامعة الإخوان بعد خروجه من المعتقل: لو تمكنت من عبد الناصر لمزقته بأسناني! بل أعذر هذا الفصيل الذي خرج على الأستاذ حسن الهضيبي في عام ١٩٦٥ وكفّر جمال عبد الناصر وجعله خارجًا عن الإسلام.

لم يكن لأسرتي نشاط سياسي ومن ثَمَّ لم يقع عليها ظلم سياسي كالذي عاناه الإخوان، لكنها - أسرتي- عانت نوعًا من الظلم الاجتماعي والطبقي وتصدت له، وكان أبي - رحمه الله - يعمل في وظيفة فني أسنان بالقاهرة، وكان يحمل لي محبة خاصة ويحمل أيضًا خوفًا دائمًا عليَّ وإن لم يصل إلى حد منعي من العمل السياسي، كان خوف أبي عليَّ خوفًا طبيعيًّا في جزء منه مثل خوف كل أب على ابنه، ولكن جزءًا منه كان خاصًّا بي وأكثر من خوفه على بقية إخوتي، ويرجع هذا إلى ما حدث لي وأنا صغير في سن الثالثة أو الرابعة من إغماء ظن معه والدي ووالدتي أنني قد مُتُّ فبدأوا في تجهيزي للدفن ولكنني أفقت فجأة من حالة الإغماء... فظل أبي يخاف عليَّ، وكان من فرط خوفه أنه لا يعاقبني مثلما قد يفعل مع بقية إخوتي حتى ولو كنا شركاء في الخطأ.

وكانت علاقتي مع أبي نموذجية فهو يهتم بي ويحيطني بعنايته ولكن دون أن يتدخل في تفصيلات حياتي بما يلغي شخصيتي أو يضيق عليَّ. لذا نشأت بيننا علاقة متميزة؛ فكان - مثلًا - شديد الاهتمام بقضية المذاكرة والتفوق في الدراسة؛ وأنا من ناحيتي لم أشعره يومًا بتقصيري في ذلك فظللت محافظًا على تفوقي في كل سنوات الدراسة (كنت أحصل على تقدير جيد جدًّا) مهما كان انشغالي بالعمل العام، وقد ساعد على ذلك عدم وجود اعتقالات في السبعينيات ولا مضايقات أمنية مقارنة بما كان يحدث في الستينيات.

الفصل الثاني

بدء العمل الإسلامي في الجامعات

في العام نفسه الذي مات فيه ناصر – عام ١٩٧٠ – كان التحاقي بالجامعة، كنت قد حصلت على مجموع كبير في الشهادة الثانوية، وكانت رغبة والدي أن أصبح طبيبًا فالتحقت بكلية طب قصر العيني بجامعة القاهرة، وأتذكر وقتها أنها كانت تخلو من أي نشاط إسلامي.

كنا نتلقى محاضراتنا في السنة الإعدادية في كلية العلوم، وكان الطلاب لا يرتادون مسجد الكلية، وأذكر أنني كنت أصلي مع زميل لي من المنيا اسمه عبد الشافي صاوي على حصيرة متهالكة، فكنت أؤذن للصلاة وكان هو الذي يؤمني فيها لأنه كان أحفظ مني للقرآن الكريم، وكان دائمًا يتساءل: لماذا لا يأتي أحد للصلاة معنا؟! ولكننا حين انتقلنا إلى كلية الطب في السنة الأولى صار مسجد الكلية (مسجد الشافعي) يمتلئ بالطلاب، وتُلقى فيه كلمة بعد صلاة الظهر، ولكن رغم ذلك لم يكن هناك أي نشاط إسلامي إلا اجتماع بعض الطلاب على قراءة القرآن الكريم بعد الصلاة.

في هذه الفترة كانت التيارات القومية والناصرية واليسارية هي التي تسيطر على الجامعة واتحادات الطلاب فيها، وكانت أفكار هذه التيارات خاصة اليسارية بمثابة الصدمة لي ولأمثالي من الشباب البسيط المتدين.

كانت مفاجأة لنا أن مجلات الحائط التي يعلقها اتحاد الطلاب تنتقد الإسلام وتخوض فيه بجرأة، ولم يكن يسلم من نقد بعضها بل سخريته أحاديث للرسول

ﷺ، وأذكر أنني حين كنت أقرأ هذه المجلات وما فيها من سب للإسلام كنت أشعر بالحزن وكنت أبكي، وكنت أتساءل: هل هذه هي الجامعة المصرية؟!

كان هذا مما حفزني وأمثالي من البسطاء والمتدينين على أن نرد على هذا السب بتعليق مجلات نبين فيها الحرام والحلال، وكان أن تصادمنا مع اليساريين والشيوعيين في حوارات كنا الذين ننال الهزيمة فيها غالبًا، نظرًا لثقافتنا القليلة السطحية وعدم خبرتنا بالحوار والجدل النظري، فلم تكن لدينا القدرة على الرد أمام القضايا التي كان يثيرها هؤلاء الطلاب المثقفون المدربون جيدًا على مثل هذه المناقشات، كما كان طلاب الاتحاد يمزقون لنا المجلات التي كنا نعلقها وكانت حجتهم أننا لم نستأذن منهم في تعليقها وهم الطلاب المنتخبون لإدارة النشاط.

وقد حفزنا ذلك على أن نقرأ في القضايا التي كانوا يثيرونها مثل ادعائهم أن الإسلام غير صالح للحكم، فبدأنا نبحث عن الكتب التي تناقش هذه القضية، وكنا إذا أعيانا البحث توجهنا إلى العلماء والشيوخ نطلب منهم النصيحة وكان أقربهم إلينا الشيخ محمد الغزالي الذي كان يوجهنا وينصحنا بقراءة كتب إسلامية معينة يرى أنها تساعدنا على الرد على الشبهات التي تنال من الإسلام، وفي هذه الفترة عرفنا الطريق إلى المكتبات الإسلامية، فكنا نذهب للبحث عن الكتاب الإسلامي في مكتبات شارع الجمهورية مثل مكتبة المتنبي ومكتبة وهبة ومكتبة التراث الإسلامي، لكن كانت دائمًا تصادفنا في اقتناء هذه الكتب عقبة أوضاعنا المادية الصعبة، فغالبيتنا من أصول فقيرة أو متوسطة ليس لديها «ترف» اقتناء الكتب، فكنا نلجأ إلى التعاون والتنسيق معًا حيث كان الثلاثة منا يشتركون معًا ويشترون كتابًا واحدًا.

ومع الوقت بدأنا نتجه إلى تنظيم حلقات قراءة القرآن الكريم وحفظه في مسجد الكلية، تعرفت وقتها عليَّ مجموعة من الطلبة المتدينين صاروا فيما بعد رموزًا وقيادات للعمل الإسلامي في الجامعة أذكر منهم: محمد يوسف وحسن عبد الفتاح وسناء أبو زيد وعبد الرحمن حسن... وفي هذه الفترة بدأ ينمو لدينا الاتجاه إلى تنظيم العمل بيننا.

وفي أول إجازة صيف بعد السنة الإعدادية بكلية الطب اجتمعنا معًا لنتناقش فيما ينبغي أن نعمله في العام الدراسي المقبل... وكانت أهم العقبات أننا من مدن ومحافظات مختلفة ومتباعدة، بعضنا من أقصى الصعيد وبعضنا من شمال البلاد... فتراسلنا بيننا للقاء في القاهرة لبحث قضية العمل الإسلامي... وأذكر أنني اضطررت وقتها لأن أرسل بخطاب للأخ سناء أبو زيد وكان من مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية في دلتا مصر لكي يلحق بنا في ذلك الاجتماع.

وكان أول اجتماع لنا في جمعية رعاية مرضى القلب والروماتيزم التي كان يرعاها أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو الفضل الذي يمكن أن نعده من دون أي مبالغة من أهم من تولوا رعاية الحركة الإسلامية الوليدة، فقد كان بمثابة الأب الروحي لنا، وكانت اجتماعاتنا كلها بعلمه وبإذنه.

الأب الروحي للحركة الوليدة

والدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل شخصية بالغة الأهمية في مسار العمل الإسلامي في مصر، ولا يمكن الحديث عن التأسيس الجديد للحركة الإسلامية في عقد السبعينيات من دون التوقف عنده، رغم أنه - إلى هذا الوقت - لم يأخذ حقه اللازم من التعريف رغم دوره البارز في تأسيس العمل الإسلامي في هذه الحقبة.

ولد أستاذنا محمد عبد المنعم أبو الفضل في مارس ١٩٢٠ في مدينة الإسكندرية وتخرج في كلية الصيدلة عام ١٩٤٨ ولكنه عُيّن معيدًا في كلية الطب التي عمل طوال حياته في رحابها. حيث لحق بطب قصر العيني عام ١٩٦٠ بعد حصوله على درجة دكتوراه العلوم من المملكة المتحدة وعودته لمصر، وشارك في تأسيس قسم الباثولوجيا الكيميائية والإكلينيكية (التحاليل الطبية المعملية) ورأس هذا القسم لفترات طويلة ممتدة حتى منتصف الثمانينيات وتخرج على يديه مئات الأطباء الذين تخصصوا في هذا المجال المهم.

وكان أستاذنا علمًا في تخصصه حيث نجح خلال أبحاثه لدراسة الدكتوراه في بريطانيا (من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٦٠) في اكتشاف علاقة الـ«فوسفاتيز أسيد»

بسرطان البروستاتا عام ١٩٥٩ وهو ما ظل وسيلة تشخيص هذا المرض الخطير الذي يصيب الملايين في العالم حتى عام ١٩٧٥ عندما ظهرت وسيلة تشخيصية أدق وأفضل هي ما يعرف بالـ «PCA» وهي القائمة حتى الآن.

وعند عودته إلى كلية طب قصر العيني أسس قسم التحاليل الطبية الكيميائية والعملية ليسهم في إعداد كل من نعرفهم الآن من العلماء في هذا المجال الحيوي.

وامتد عطاء الفقيد الراحل إلى الجانب الإداري والعلمي فأسس معظم أقسام التحاليل في كليات الطب بالجامعات الإقليمية مثل الزقازيق وأسيوط وبنها والمنصورة... إلخ، بل امتد مع شريكة حياته إلى خارج مصر فأسسا معًا كلية طب البنات بإمارة دبي في منتصف السبعينيات.

عمل في السعودية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة في أواخر السبعينيات وشارك في تأسيس الهيئة العلمية في القرآن والسنة، وكان حريصًا طوال مسيرته العلمية على غرس الإيمان بالخالق تعالى وبمنهجه المتكامل للحياة من خلال إظهار وحدانية الله وبديع صنعه في خلق الإنسان.

وقد تزوج شريكة حياته ورفيقة دربه المرحومة الدكتورة زهيرة عابدين وأسّسا أسرة طيبة تخرج فيها منى أبو الفضل الأستاذة بكلية السياسة والاقتصاد، وعمر أبو الفضل الأستاذ السابق بهندسة الأزهر، وعزة أبو الفضل بكلية الطب... وشاركا معًا في مجالات العلم والبحث العلمي والنشاط والعمل الاجتماعي حيث تشاركا في تأسيس جمعيات النفع العام والمدارس المعروفة بمدارس الطلائع الإسلامية.

والدكتور أبو الفضل هو ابن وفيٌّ للحركة الإسلامية ولم يكن طارئًا عليها فقد تعرّف على دعوة الإخوان المسلمين خلال دراسته الجامعية وانتظم عضوًا فيها في قسم الطلاب، ولكن واكب تخرجه قرار حكومة النقراشي باشا بحل الجماعة في ديسمبر من عام ١٩٤٨ ولم يكن قد عُرف فيها فلم يلق القبض عليه إبان الحملة الشرسة التي أعقبت قرار الحل.

وقد كان يحكي أنه في هذه الأثناء كان ذات مرة مشرفًا على رحلة طلابية في فبراير عام ١٩٤٩ إلى مدينتي الأقصر وأسوان، وأبلغ أثناء الرحلة بوفاة والده فاضطر للعودة لحضور مراسم الدفن وتلقي العزاء، وعند عودته فوجئ وهو يقرأ صحف الصباح بنبأ اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا - عليه رحمة الله - فأدى الصلاة على أبيه ثم توجه عقب صلاة الجنازة إلى المصلين داعيًا إياهم لصلاة الغائب على إمامه الذي استشهد وحُرم الناس من الصلاة عليه أو تشييع جثمانه.

وظل وفاء الرجل قائمًا فعاد إليها (جماعة الإخوان المسلمين) بعد حكم القضاء بعودتها ومارس نشاطه في أقسامها، ثم اختير لعضوية الهيئة التأسيسية الجديدة للجماعة ونشط بها حتى سفره للبعثة الدراسية إلى إنجلترا عام ١٩٥٣ قبل الحل الثاني والأخير للإخوان؛ وبذلك ظل محتفظًا بهذه العضوية حتى عاد نشاط الإخوان في منتصف السبعينيات.

لم يتوقف جهاد أستاذنا الدكتور أبو الفضل بسبب حل الجماعة بل ظل وفيًّا للدعوة الإسلامية، رغم صعوبة ظروف عقد الستينيات والحملة الشرسة التي طالت الإخوان عام ١٩٦٥ ولاحقت كل من له شبه اتصال بهم، فكان - رحمه الله - يتحين المناسبات الإسلامية المختلفة لإحيائها ودعوة عدد من الدعاة للحديث فيها مع الطلاب، وكان إذا رأى إقبال الطلاب ضعيفًا يحشد طالبات مدرسة التمريض لملء المدرجات.

كان للرجل وقت دخولنا الجامعة نشاط إسلامي ولكنه كان بسيطًا لظروف وقته، وغالبًا ما اقتصر على إقامة محاضرات موسمية في المناسبات الإسلامية والوطنية، وتنظيم إفطارات للصائمين في رمضان وغير رمضان، أو تنظيم أيام إسلامية قليلة تتضمن حلقات لتعليم تلاوة القرآن الكريم... وكان لهذا النشاط الذي يبدو بسيطًا فعل السحر فينا نحن الطلبة الجدد الذين لم نكن نعرف للدعوة الإسلامية مظهرًا غيرها... وأعتبر أن جيلنا مدين لهذا الرجل بالكثير، وأنه كان صاحب دور بالغ الأهمية في نشأة الحركة الإسلامية الوليدة... وقد توفي - رحمه الله - في يوم الأربعاء ٢٣ من شوال من عام ١٤٢٣ الموافق ١٧ من ديسمبر ٢٠٠٣... - رحمه الله - رحمة واسعة.

التقينا - كما أسلفت - في إجازة الصيف الأول لنا بالجامعة لننسق لعملنا في العام المقبل، وحين بدأنا العام الجديد كنا أفضل حالاً من سابقه، ولكن ظل النشاط بسيطًا لبساطة خبرتنا وإمكاناتنا... كان أبرز نشاطنا إقامة حلقات تلاوة القرآن الكريم، وكتابة بعض التوجيهات الدينية ونشرها في مجلات الحائط، ثم تطورنا فطبعنا أوراقًا بها أحاديث نبوية أو توجيهات ونصائح وكنا نوزعها على الطلاب، ثم تطورنا أكثر فصرنا نكتب الأحاديث النبوية على سبورات المدرجات ثم بدأنا نكتب بعض الحِكَم السياسية التي كانت تشير إلى ظلم الحاكم ومسئوليته بين يدي الله... أو نسرد بعضًا من المواقف للسلف فيها إسقاط على الحكام وخاصة من مواقف سيدنا عمر بن الخطاب الذي كان في وعينا - وما زال - رمزًا للحاكم العادل... ثم تفاعلاً مع أجواء حرب الاستنزاف التي كانت تعيشها البلاد بدأنا ندعو في خطابنا للصمود أمام الصهاينة وتحرير فلسطين.

كنا دائمًا ما نصطدم في نشاطنا هذا باتحاد الطلاب وقيادته المنتخبة التي كانت ترفض هذا الشكل البسيط من أشكال النشاط الديني في الجامعة وكانت تريد احتكار النشاط الطلابي... وقد سعينا وقتها إلى الالتزام بالشكل القانوني فصرنا نعمل تحت لافتة «لجنة التوعية الدينية» التي أسسها أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو الفضل وكانت تابعة للجنة الثقافية في الاتحاد.

وأذكر أننا كنا إذا طلبنا من طلاب الاتحاد بعض الأوراق لكتابة الأحاديث والتوجيهات الدينية كانوا يرفضون أي طلب لنا متحصنين بسلطتهم... فكنا ندفع من جيوبنا قروشًا قليلة ولكنها كانت «تُضلعنا» وتجهدنا ماديًّا لأننا كنا فقراء أو ضعيفي الحال ولا نتحمل ذلك «العبء» المالي رغم قلته، كان أفضلنا حالاً يأتي للجامعة - في بعض الأحيان- سيرًا على الأقدام توفيرًا لـ «تعريفة» أجرة الأوتوبيس... ولم يكن لدى أي منا سيارة أو حتى دراجة.

لم يكن لدى أي منا وقتها تصور معين أو رؤية دينية محددة... كنت - وكل مجموعتنا تقريبًا - من المتدينين بالفطرة وبحكم النشأة الاجتماعية المتدينة... نزعتي للتدين كانت

تأثرًا بوالدي – رحمه الله – الذي كان متدينًا بفطرته، وكذلك أمي التي كانت مثل أمهاتنا جميعًا بسيطة أمية لا تقرأ ولا تكتب لكنها متدينة بفطرتها، وعنهما ورثت التدين الفطري كالتزام الحلال واجتناب الحرام والمحافظة على الصلاة والعبادات والتمسك بالعادات والقيم الطيبة.

كما أنني مدين في تديني للجمعية الشرعية التي نشأت في أحد مساجدها المجاورة لبيتنا... فقد كان المنتمون للجمعية الشرعية يحسنون تربية الناس على الأخلاق الطيبة والمحافظة على العبادات، وكذلك جماعة أنصار السنة التي كنت أذهب إليها دائمًا مع والدي وأواظب معه على حضور الدروس الدينية التي يلقيها الشيخ حامد الفقي في مسجد الهدّارة بحي عابدين... وكان والدي عضوًا بجماعة أنصار السنة وكان حريصًا على دفع اشتراكها شهريًّا... كان – رحمه الله – يحب المواظبة على هذه الدروس وذكر لي أنه كان يحضر دروس الإخوان ولكنه لم يعجب بهم!!

في هذه الفترة كان ذكر كلمة الإخوان محظورًا ومحذورا، فقد نجح الإعلام في أن يصورهم للناس على أنهم جماعة دينية لها أغراض سياسية للسيطرة على الحكم وأن وسائلهم في ذلك هي العنف والقتل، وكان والدي مقتنعًا بذلك وكان يردد هذا الكلام على مسامعي وأنا صغير... ولم يكن للناس في ذلك الوقت أي مصدر للمعلومات غير الدولة وإعلامها، وكان لجمال عبد الناصر كاريزما تجعلهم يصدقون كل ما يقوله بحق خصومه وفي مقدمتهم الإخوان.

أما المتصوفة فكنت أنفر منهم لارتباطهم عندي -وقتها- بالبدع والأخلاق غير الطيبة وبسبب محاربة جماعة أنصار السنة والجمعية الشرعية لهم. ولم أتعرّف على الوجه الطيب للتصوف إلا عندما دخلت الجامعة واقتربت من أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل الذي كان قد سلك طريق التصوف بعد الإخوان المسلمين وصار صوفيًّا زاهدًا عابدًا، فبدأت أحترم التصوف وأقدّر هذا النموذج للمتصوفة، فقد كان الدكتور أبو الفضل الوحيد من أساتذة الجامعة الذي رأيناه يمسك بالمصحف ويقرأ القرآن. كما كانت زوجته الدكتورة زهيرة عابدين – رحمها الله – نموذجًا للمرأة المتدينة التي تحظى باحترام الجميع فكانت تلتف حولها الطالبات ويتخذنها

أمًّا لهن، أما ابنتهما عزة أبو الفضل فقد كانت الطالبة الوحيدة في الجامعة كلها التي رأيتها ترتدي غطاء رأس (إيشارب) على رأسها.

وتأثرت أيضًا برجل علمت فيما بعد أنه من فضلاء المتصوفة هو الشيخ الجليل الدكتور عبد الحليم محمود الذي أصبح شيخًا للأزهر... وقد عُرف الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود (١٩١٠-١٩٧٨) - رحمه الله - بالزهد والتقوى والتزام التصوف، وكانت له كتابات في التصوف سهلة ومقربة إلى النفس عرّف فيها التصوف وشيوخه وأعلامه فقرّبه كثيرًا إلى الناس وأخرجه من دائرة الطرق الخاصة... وكان الشيخ عبد الحليم محمود واحدًا من أهم الشيوخ الذين تولوا مشيخة الأزهر، وفي عهده استطاع أن يعزز مكانة الأزهر في الدولة وأن يحصل له على امتيازات كثيرة أعادت له بعضًا من هيبته واستقلاليته التي كانت قد تأثرت بقانون إصلاح الأزهر الذي أصدره الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٠... وفي عهد الشيخ عبد الحليم محمود أصبح شيخ الأزهر بمنزلة رئيس الوزراء في البروتوكول وإن ظل يتبعه ماليًّا... وصار له حضور قوي في الحياة العامة.

ولا أنسى أيضًا المشايخ والعلماء الذين تزايد تأثيرهم في بداية السبعينيات بعد موت جمال عبد الناصر، وفي مقدمة هؤلاء وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالي الذي كنا نحضر خطبه ودروسه في مسجد عمرو بن العاص، وكانت دروسه وخُطبه مدرسة متكاملة في الاعتدال والوسطية.

لقد كان الشيخ الغزالي صاحب الفضل الأول في جعل الإسلام في بؤرة اهتمامي وأبناء جيلي، وهو مَنْ بث فينا الوعي العملي بالإسلام كمشروع حضاري نهضوي، وقد تأثرت به كثيرًا في البداية من خلال خطبه في مسجد عمرو بن العاص ثم من خلال محاضراته لما دخلنا الجامعة وكنا ننظم له المحاضرات فيها... لقد كنا نصلي في مساجد كثيرة مثل مساجد الجمعية الشرعية أو أنصار السنة وذلك لسماع أي شيخ مفوّه، ولكن الشيخ الغزالي لما له من تاريخ وسمعة طيبة اجتذبنا له، بل اجتذب الإخوان المسلمين أيضًا فيما بعد خاصة الذين خرجوا من المعتقلات وكانوا

يحضرون دروسه ومنهم الأستاذ حسن الهضيبي الذي كان يصلي وراءه في مسجد عمرو بن العاص رغم الخلاف القديم بينهما.

وأذكر في هذا الصدد أن د. أحمد الملط، وكان ممن خرجوا في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات سأله يومًا بعد إحدى خطبه: وماذا بعد؟! فكان رد الشيخ الغزالي عليه: هذا سؤال عليكم أنتم الإجابة عنه... وكان يقصد بقوله «أنتم» الإخوان المسلمين.

كانت خُطب الشيخ الغزالي تُنضج عند المسلم فكرة وجود مشروع حضاري للأمة الإسلامية وكان أول من سمعت منه مثل هذا الكلام، فرغم أنني متدين منذ صغري لكنني لم أكن أسمع بهذا... كنت أسمع دروس أنصار السنة وكلها تدور حول قضايا التوحيد ومحاربة البدع كتقديس الأولياء والتبرك بالأضرحة... أما دروس الجمعية الشرعية فتدور حول العبادات والفرائض... هذا ما كنت أعيش فيه وهذا كان هو الدين بالنسبة لي، إلى أن استمعت إلى الشيخ الغزالي فتغير هذا كله إلى مشروع عام للأمة؛ مشروع بعث الأمة ونهضتها، مشروع بناء دولة ووطن كان يمكن أن يحقق النصر على اليهود عام ١٩٦٧ لو التزمنا به... كل هذه المعاني الجميلة كان للشيخ الغزالي الفضل في ترسيخها في نفوس الشباب.

وإذا كانت الجزائر ما زالت تذكر للشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - دوره في المحافظة على الهوية الإسلامية العربية للشعب الجزائري فإننا نعتبره من أعظم الذين خدموا الفكرة والحركة الإسلامية والإخوانية على وجه خاص في جيلنا؛ ففي الوقت الذي كان فيه الإخوان في المعتقلات وليس لهم رسالة واحدة منشورة في طول مصر وعرضها كان الشيخ الغزالي يحمل فكر الإخوان الوسطي المستنير ومشروعها للنهضة ويبشر به في خُطبه ودروسه ومواعظه وكتاباته.

وأذكر أن أول ما وصينا به أنفسنا هو قراءة كتب الشيخ الغزالي؛ فبدأت له بكتاب «عقيدة المسلم» ثم «خُلُق المسلم»... وغيرهما. وكانت كتبًا على سهولتها تحمل قيمة هائلة وطرحًا مختلفًا لدى الكتّاب والجمعيات الإسلامية مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية.

ومما يذكر أن الثورة كانت قد أطاحت بكل العلماء العاملين الصالحين، ولم يبقَ سوى المنافقين والمتملقين الذين يهتفون بحياة جمال عبد الناصر، ولذلك كان إعجابنا بعلماء من أمثال الشيخ الغزالي، فقد كان يشعرك بالإباء والاعتزاز بالإسلام، وكنت أحبه جدًّا لقرب شخصيته من نفسي... وقد أحببته منذ عرفته ورأيت فيه نموذج العالم الرباني، وأذكر أنه مما أحزنني وأنا صغير تلك الهجمة التي تعرض لها الشيخ بسبب تصديه لقضية كانت مثارة في قانون الأحوال الشخصية تتعلق بتعدد الزوجات وهي الحملة التي تولاها رسام الكاريكاتير صلاح چاهين الرسام الذي رسمه على حصان في وضع مقلوب وسخر منه.

وكذلك الفقيه المجتهد الشيخ سيد سابق صاحب «فقه السنة» الذي كنا ندعوه للكلية لإلقاء محاضرات في مسجدها ثم في المدرجات بل في المخيمات التي كنا نقيمها في الجامعة، وكان مرجعنا في كثير من القضايا والمسائل الفقهية التي كانت تواجهنا.

كان الشيخ سيد سابق رحمه الله - وكان يعمل وقتها في وزارة الأوقاف - مثالًا ونموذجًا للشيخ الأزهري العالم الصالح الذي يتفق سلوكه مع خلقه وذلك ما لم نره من قبل في مشايخ الأزهر.

وقد أفادنا الشيخ سيد سابق خاصة في دروس الفقه فقد كانت لدينا جرأة على الفتوى مرجعها قلة العلم، وكان الشيخ سيد سابق دائم القول إن العلم يؤخذ عن العلماء وإنه لا ينبغي أن نذهب لنقرأ حديثًا أو آية لنأخذ منها الحكم مباشرة... وكان الشيخ سيد سابق صاحب نكتة وحس فكاهي؛ وأذكر أول مرة أسمع منه نكتة معرضًا فيها بمن لا يحسنون القراءة وخطورة الاعتماد على الكتب وحدها في تلقي العلم، فحكى لنا أن أحد الشباب قرأ حديثًا يقول: «دخل النبي ﷺ على السيدة عائشة في شوّال» وشرح لنا كيف أن هذا الشاب ظن أن من السنة أن يدخل الرجل على امرأته مرتديًا شِوالًا... وأضحكنا كثيرًا يومها... لقد كان الشيخ سيد سابق مثال الفقيه المرح المبتسم الذي يقرن العلم بالطرفة، والذي كان خير قدوة في خلقه وسلوكه.

وكان هناك أيضًا العالم الجليل الدكتور البهي الخولي وكانت له كتابات مؤثرة خاصة مقالاته التي كانت تفيض روحانية والتي كان ينشرها تحت عنوان «مع

العارفين»... وكذلك الأستاذ عيسى عبده الذي كان أول من سمعناه يتكلم في الاقتصاد الإسلامي، وكان ينتمي لأسرة مسيحية أعلنت إسلامها، ومن شيوخ هذه الحقبة الذين أثروا فينا الشيخ الفقيه المجتهد محمد أبو زهرة رحمه الله.

وكان بعض هؤلاء العلماء مثل محمد الغزالي وسيد سابق والبهي الخولي من شيوخ وعلماء الإخوان المسلمين قبل الثورة وقبل الصدام العنيف الذي وقع بين قادتها وبين الإخوان... وقد فُصِلَ هؤلاء من الجماعة أو ابتعدوا عنها لخلافات وأسباب مختلفة؛ فكان من قدر الله أن يتولوا زمام الدعوة في حقبة الخمسينيات والستينيات التي كانت فيها جماعة الإخوان محظورة ومطاردة، وكان أعضاؤها إما نزلاء السجون والمعتقلات أو ملاحقين من قبل أجهزة الدولة... وقد كان لهؤلاء العلماء تأثير كبير في ملء هذا الفراغ من خلال عملهم في الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف. وقد تأثرنا بهم جميعًا وبما قرأناه أو سمعناه منهم من مفاهيم وأفكار إسلامية كانت جديدة علينا، وكان أكثرهم تأثيرًا فينا الشيخ الغزالي؛ فقد كان راقيًا متحضرًا في عرضه للإسلام وقدَّم لنا فهمًا حضاريًّا كنا نجهله، وهو الذي عرّفنا بشمولية الإسلام وتأثيره في الحياة العامة، وكان له دور مهم في بث الوعي الإسلامي، وتنوير عقولنا بما كنا نجهله قبل الالتحاق بالجامعة... وربطتني به فيما بعد علاقة شخصية زادتني فيه حبًّا.

الغريب أنه على العكس من ذلك كانت لي نظرة سلبية للأزهر الشريف، فلم أكن أرى أن علماءه قاموا بواجب الدعوة، وأن أداءهم كان أقل مما ينتظر منهم، وكان تقديره أقل بكثير مما كنت أحمله لجمعيات دينية أصغر وأحدث كثيرًا مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية التي كانت أكثر تقديرًا واحترامًا في أعيننا من الأزهر الذي كان يمثل لدينا المؤسسة الدينية الرسمية.

ثم زادت نظرتي السلبية للأزهر بعد دخولي الجامعة وبعدما اطلعت على موقفه السلبي في قضية الصراع بين الإخوان والثورة وانحيازه للثورة، وكنت قد صرت على قناعة بأن قيادات كبيرة في الأزهر شاركت في حملة التضليل التي قام بها النظام الناصري لجيلنا وأجيال كثيرة قبله. فحين بدأ النظام الناصري حملته الثانية على الإخوان عام ١٩٦٥ واعتقل عشرات الآلاف منهم وقضى بالإعدام على عدد من قادتهم على رأسهم الشهيد سيد قطب حشد لهذه الحملة بعضًا من مشايخ

الأزهر الذين كانوا أشد قسوة على الإخوان من جلاديهم... حتى إنهم أصدروا كتابًا شهيرًا سمّوه «رأي الدين في إخوان الشياطين»! حملوا فيه على الإخوان وأفكارهم وشيوخهم... وقد شارك في هذا الكتاب - للأسف - عدد من الشيوخ والعلماء الذين لم يكن يظن بهم الوقوع في مثل هذا الجرم.

أول لقاء بالإخوان المسلمين

وكان من تداعيات موت الرئيس جمال عبد الناصر وتولي الرئيس أنور السادات السلطة أن سُمح للمرضى من معتقلي الإخوان بالانتقال للعلاج خارج السجن، فجيء بهم للعلاج في المعتقل السياسي في كلية طب قصر العيني (مستشفى المنيل الجامعي) ولم يكن يسمح بذلك من قبل إلا للسياسيين من غير الإخوان المسلمين.

كان يسمح لنا بالدخول مع الأطباء للمنيل الجامعي باعتبارنا طلابًا في كلية الطب، فكنا نرى بعضًا من المعتقلين السياسيين مثل الصحفي الشهير مصطفى أمين مؤسس أخبار اليوم الذي كان مسجونًا بعد اتهام النظام الناصري له بالتجسس لأمريكا، لكننا لم نقابل مساجين الإخوان ومعتقليهم إلا لاحقًا، فقد كان الإخوان يعاملون أسوأ معاملة في السجون، ومن كان يمرض منهم يترك في السجن إلى أن يموت. ومع تولي السادات للسلطة تحسنت أوضاع الإخوان وبدأ السماح لهم بالعلاج، وكان ذلك ما بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ على ما أتذكر، وكان من أوائل من رأيتهم من الإخوان الذين يعالجون الأستاذ فتحي رفاعي الذي اقتربت منه كثيرًا في فترة علاجه وكذلك الأستاذ عمر التلمساني الذي ظل شهرًا تقريبًا في المستشفى.

كان بالنسبة إليّ حلمًا أن ألتقي شيوخ الإخوان الذين كنا نسمع عنهم قصصًا تثير الرعب والخوف، وحين رأيناهم وتحدثنا معهم وجدناهم أناسًا آخرين غير الذين سمعنا عنهم من إعلام العهد الناصري. وجدنا مجاهدين ضحوا بأنفسهم من أجل دعوتهم ورفضوا المساومة عليها حتى لو كان مصيرهم السجن والتعذيب، بل القتل... وكانت سعادة ما بعدها سعادة بلقاء هؤلاء والحديث معهم والاستماع إليهم، وقد سعينا للاقتراب منهم والتعرف عليهم.

وفي إحدى زياراتنا له استطاع الأستاذ فتحي رفاعي أن يسرب إلينا رسالة التعاليم وفيها الجزء الخاص بواجبات الأخ العامل، وكان قد أعاد صياغة ذلك الجزء تحت عنوان «واجبات الأخ المسلم» وحذف منه كل ما يشير إلى التنظيم، وكتبها بخط اليد. كان هذا أول لقاء لي وربما لجيلي مع كتابات الإمام الشهيد حسن البنا، فأخذنا نتداولها بيننا على أنها إحدى كتابات الأستاذ البنا وكنا سعداء ونحن نقرأ تلك المعاني العظيمة، ثم طبعناها بنفس العنوان الجديد لها، ووزعناها على الطلاب في الكلية، وكان لها تأثير كبير.

في هذا الوقت كان ذكر الإخوان محظورًا، وكانت كتبهم كذلك محظورة. وكانت الكتب المنتشرة في ذلك الوقت هي كتب أنصار السنة والجمعية الشرعية، وكتب أبي الأعلى المودودي وكانت من الكتب التي أثرت فينا سياسيًا وفكريًا، والتي رأينا فيها المفهوم الشامل للإسلام ولكن بالشكل المتشدد، كما كانت هناك أيضًا كتب الاتجاه السلفي التي كانت منتشرة بغزارة، وكانت توزع علينا مجانًا في الجامعة، وكنا نسعد بها لأنها كتب دينية ولكننا لم نكن نعلم ما وراءها من الفكر المتشدد، وكانت هناك - أيضًا - كتب الأزهر الشريف، وكان من أشهر الكتب وقتها «فقه السنة» الذي كان مسموحًا به في ذلك الوقت مثله مثل كتب العبادات والأخلاق والفقه.

الدخول في الاتحادات الطلابية

كان عملنا في السنتين الأوليين تحت اسم «لجنة التوعية الدينية» التي أسسها أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو الفضل، لكننا اصطدمنا بكون هذه اللجنة تخضع لسيطرة اتحاد الطلاب ومن ثَمَّ تضييق مسئوليه من المنتمين للتيار اليساري، فقررنا أن نستقل باللجنة ونطلق عليها اسم «الجمعية الدينية» رغم أنف الاتحاد واصطدمنا بهم بسبب ذلك، في الوقت الذي كانت القبضة الأمنية قد بدأت تخف كثيرًا.

كنا قد بدأنا ننتشر بين الطلاب أكثر فأكثر رغم معارضة الاتحاد والقوى اليسارية لنا، وكان أن ترتب على ذلك أننا صرنا نشتبك معهم فكريًا وثقافيًا، بل كثيرًا ما كنا نتبادل الضرب بالأيدي داخل الكلية حين تحتد المناقشات ويبدأ أحدهم في سب الإسلام أو السخرية من تعاليمه.

كانت القوى اليسارية تسيطر تمامًا على العمل الطلابي، وساءها كثيرًا أن تحظى حركتنا الجديدة باهتمام وإقبال الطلاب، فسعت إلى التضييق على نشاطنا فحصرتنا في البداية في اللجنة الدينية وهي مجرد فرع للجنة الثقافية إحدى اللجان الست في اتحاد الطلاب، ثم لما نشطت اللجنة الدينية حاصرها اليسار ومنعوا عنا أي تمويل من أموال الاتحاد المخصصة للنشاط.

لم يكن الدخول في الاتحاد جزءًا من همّنا في هذه الفترة، كان هدفنا الواضح والوحيد هو الوصول بدعوتنا للطلاب، وهو ما كان اتحاد الطلاب يسعى للحيلولة دونه، لذلك قررنا في عام ١٩٧٣ - لأول مرة - خوض الانتخابات الطلابية ردًّا على الموقف المتعنت الذي كان يتعامل به معنا الاتحاد الذي كان يمنع نشاطنا في الوقت الذي يرعى فيه نشاط غيرنا من الاتجاهات الأخرى. وكان أول اتحاد قررنا دخوله اتحاد كلية طب قصر العيني باعتبارها معقل ومركز العمل الإسلامي وقتها، فترشحنا لجميع لجان الاتحاد الست!

كانت حركتنا قد اتسعت وصارت محل جذب للطلاب والطالبات، وكان الإقبال علينا واسعًا بما يطمئننا على الفوز بالانتخابات، لكن كانت هناك عقبة كبيرة أمامنا تتمثل في صعوبة خوض الانتخابات في اللجنة الفنية، إذ لم تكن لدينا أي علاقة بالفن، إلا علاقة الرفض باعتباره رجسًا من عمل الشيطان!! وربما كان ذلك انعكاسًا لما كانت تروجه وسائل الإعلام عن الفن وحصره في دائرة اللهو والعبث. لم نكن نعلم - فعلًا - ما الفن؟ وما مفرداته؟ وماذا تعني اللجنة الفنية؟ وماذا يمكن أن نقدمه فيها للطلاب؟

رغم أن الإخوان المسلمين كانوا قبل ثلاثة عقود قد أوْلوا الجانب الفني اهتمامًا كبيرًا وكانت لهم فرق غنائية ومسرحية؛ إلا أن غيابهم عن الساحة فترة طويلة ترك أثرًا سلبيًّا كبيرًا في علاقة المتدينين بالفن، وحين بدأنا العمل الإسلامي تأثرنا بهذا الغياب ولم يكن الإخوان قد خرجوا بعد من المعتقلات.

لم يكن لنا أي تصور عن الفن يسمح لنا بخوض انتخابات من أجل السيطرة على اللجنة التي تديره وتوجهه... ولكننا فعلناها وقررنا خوض الانتخابات في هذه اللجنة... فقط لوقف ذلك الفساد الذي كان يعني الفن نفسه!!

الطريف أننا رشحنا لتلك اللجنة الأخ حسن عبد ربه، وكان أخًا ريفيًّا بسيطًا لم يسبق له الخروج من قريته والنزول إلى القاهرة إلا عندما التحق بكلية الطب! في حين

ترشح أمامه عدد من الشباب اليساري والناصري كانت لهم علاقة وثيقة بالفن هواية وممارسة. وحتى يوقعونا في الحرج جاءنا أحدهم وسألنا أمام تجمع من الطلاب: أين مرشحكم في اللجنة الفنية حتى أناقشه؟ وما برنامجه في اللجنة؟ كان حسن عبد ربه وقتها يقف خلفي مباشرة، ولما كنت واثقًا من أنه لا يعرف في الفن شيئًا، وأنه لن يصمد أمامه لحظة واحدة، فقد قلت له: اذهب وابحث عنه!

كان الفن أبرز نقاط ضعفنا ومن ثَمَّ كانت نقطة الضعف الكبرى في هذه الانتخابات ولزمن طويل بعدها هي اللجنة الفنية، ورغم ذلك استطعنا أن نفوز فيها وفي أربع لجان أخرى من اللجان الست، ولم نخسر إلا في لجنة الجوالة التي فاز فيها طلاب آخرون لم يكن لهم اتجاه فكري محدد ولكنهم كانوا مهذبين وغير معادين لنا، ومن ثَمَّ أصبحت قيادة الاتحاد معنا.

وحين فزنا باللجنة الفنية في الاتحاد لم يكن لدينا أي رؤية عن الفن سوى أنه حرام ومن ثَمَّ لم يكن لدينا أي تصور عن إدارة هذه اللجنة سوى إيقاف عملها تقربًا إلى الله! للأسف كانت رؤيتنا للفن قاصرة ومتأثرة بما كنا نراه من انحلال وتهتك وما كانت تقيمه اللجنة الفنية وقتها من حفلات رقص وخلاعة وعرض لأفلام مبتذلة... لم يكن في وعينا وقتها أن الفن يمكن أن يكون وسيلة لنشر الأفكار النبيلة وأنه ليس عيبًا في ذاته... لكن غلبتنا الممارسات الفاسدة التي كانت تتم باسم الفن فكان هدفنا من الترشح للجنة الفنية والفوز بها هو إيقاف المنكر والانحلال الذي تبثه بين الطلاب، ومن ثَمَّ عطلنا عملها بمجرد أن فزنا بها... ولا أتذكر لها نشاطًا يذكر لسنوات حتى بدأنا من خلال الجماعة الإسلامية نتبنى مفهوم الفن الهادف والفن الإسلامي الذي بدأ وقتها بالأناشيد الثورية والجهادية وكان عام ١٩٧٣ أول عام ندخل فيه الاتحادات الطلابية لنفوز بمجالسها في كلية طب قصر العيني التي أصبح أول رئيس لاتحاد طلابها من الجماعة الإسلامية ومنها انطلقنا إلى بقية جامعات مصر.

الفصل الثالث

من قصر العيني إلى جامعات مصر

كان الفوز بمجلس اتحاد كلية طب قصر العيني عام ١٩٧٣ بداية قوية أعطتنا دفعة هائلة للعمل داخل جامعة القاهرة ومنها للجامعات الأخرى، في السنوات التي تلتها، فقد تحول مبنى اتحاد كلية طب قصر العيني (وكان مبنى ضخمًا وله ساحاته وملاعبه الخاصة) إلى المركز العام للنشاط الإسلامي لجامعات مصر كلها، حيث كان يأتيه الطلاب المتدينون من كل مكان في الجمهورية. وكان الطلاب من الكليات بل الجامعات الأخرى إذا أرادوا بدء نشاط إسلامي يأتون إلينا لاكتساب الخبرة وطلب العون، فصارت كلية طب قصر العيني بحق هي الرائدة في العمل الإسلامي في الجامعة، وقد جاء ذلك كله بفضل الله وحده في صورة تلقائية قبل أن يصبح عملًا منظمًا.

وكان معنا في نفس الدفعة الإخوة سناء أبو زيد - رحمه الله - وكان قارئًا مثقفًا وظل حتى وفاته عام ٢٠٠٨ من خيرة الإخوان علمًا وعملًا، ومحمد يوسف (يعمل أستاذًا للباطنة في السعودية) وكانت دفعتنا هي التي بدأت النشاط الإسلامي الفعلي، ولكن كانت هناك بدايات لهذا التوجه موجودة قبلنا كان من رموزها عبد الرحمن حسن (ويعمل طبيبًا في التأمين الصحي وأظن أن علاقته انقطعت بالعمل الإسلامي)، وأحمد اللبان (أستاذ جراحة).

ثم جاءت الدفعة التي تلينا وكانت متميزة ونشيطة، ومن أبرز رموزها الإخوة عصام العريان ومحمد عبد اللطيف، وكانا أبرز اثنين في الدفعة. وكان معهما محمد

يوسف وهشام الصولي... ثم توالت الدفعات حتى كانت مجموعة أقوى وهي دفعة عام ١٩٧٩ التي كان أشهر رموزها الأخ حلمي الجزار ومجموعته ومن أبرز أعضائها الإخوة محمد مسعد وعبد الناصر صقر وأحمد سليم وإبراهيم مصطفى...وغيرهم.

لقد كانت هذه الفترة من أكثر فترات الحركة الطلابية في مصر نشاطًا... وهي التي أخرجت معظم رموز العمل السياسي والنشاط العام في مصر... ولا أعني الرموز الإسلامية فقط بل أذكر أيضًا أن من رموز التيارات الأخرى غير الإسلامية في جيلي... ففي العام التالي لهذه الانتخابات (عام ١٩٧٤) كانت قد تبلورت في الحركة الطلابية في مصر ثلاثة تيارات أساسية، غير الطلاب التابعين للنظام، وكانت التيارات الرئيسية هي:

- التيار الناصري، وكان يمثله نادي الفكر الناصري.
- تيار الفكر الاشتراكي ويمثلهم اليساريون والشيوعيون؛ وكان يمثله نادي الفكر الاشتراكي.
- التيار الإسلامي والذي تحول اسمه إلى الجماعة الإسلامية سنة ١٩٧٣.

كان من أشهر الطلاب اليساريين عادل فتحي وأشرف صادق وعايدة سيف الدولة بنت الأستاذ عصمت سيف الدولة المفكر القومي المعروف... وكان بعضهم يتطاول على الإسلام والرسول ﷺ ويصل الأمر معه إلى الاشتباك بالأيدي.

كما ظهر من التيار الناصري حمدين صباحي الصحفي والنائب البرلماني ووكيل مؤسسي حزب الكرامة حاليًا و الذي كان رئيسًا لاتحاد كلية الإعلام ثم اتحاد الجامعة، وسامح عاشور نقيب المحامين ورئيس اتحاد المحامين العرب الحالي الذي كان رئيس اتحاد الحقوق سنة ١٩٧٤، وكان قريبًا من هذا التيار زياد عودة الذي كان رئيسًا لاتحاد كلية الآداب بجامعة القاهرة وهو ابن الشهيد عبد القادر عودة... وأتذكر أيضًا من طلاب التيار الوطني القريب من الدولة عدلي الملط رئيس اتحاد كلية العلوم.

في هذه الفترة التي بدأ فيها العمل الإسلامي بالظهور داخل الجامعة كانت البلاد على عتبات الحرب، وكانت قضية الحرب هي المسيطرة على وعي الطلاب واهتماماتهم...

وقد كنا كطلاب إسلاميين نعيش هذه القضية كبقية الطلاب فنتكلم بين الطلاب عن ضرورة الثأر والانتقام من إسرائيل وتحرير الأرض... وكنا نصدر نشرات وبيانات عن المعركة الفاصلة بيننا وبين اليهود... وأذكر أننا كنا نشارك في التظاهرات التي تجتاح الجامعة وقتها... وأذكر أنني حضرت بعضًا من مظاهرات الطلاب التي كان يقودها القائد الطلابي اليساري أحمد عبد الله رزة الذي كان يكبرني بعامين؛ خاصة المؤتمر الذي عقد في القاعة الرئيسية للجامعة... ولما بدأت الحرب بدأنا – خاصة في كلية الطب– في نشاط التبرع بالدم للجرحى.

لكن مما يسجل في هذه الفترة أن التيار اليساري كان هو المسيطر على الجامعة وقتها فيما كنا كطلاب إسلاميين- خاصة في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١- ما زلنا نخطو خطواتنا الأولى في العمل الطلابي لذلك كان الصوت اليساري في هذه الفترة هو الأعلى... لذلك لم تجمعنا معهم فعاليات مشتركة خاصة مع حالة العداء الفكري بيننا وحالة التنابذ والصراع... كما أن كثيرًا من فعالياتهم من أجل الحرب كانت تخرج عن أهدافها المعلنة لتصب في حالة المواجهة بينهم وبين النظام في قضايا لا صلة لها بالحرب.

كان دخولنا اتحاد الطلاب فرصة لزيادة نشاطنا في الجامعة، فازداد عدد الندوات حتى وصل إلى ندوة أسبوعيًّا، كما كان له أثر كبير في الخدمات التي كنا نقدمها للطلاب، حيث تضاعفت قدرتنا على تقديم الخدمات نظرًا للميزانية الكبيرة لاتحاد الجامعة، وقد يسرت لنا تلك الميزانية أن ننشر زي الحجاب بين الطالبات وذلك ببيعه لهن، كما سمحت لنا بإصدار وطبع سلسلة كتيبات «صوت الحق» التي كانت منبرًا لنشر أهم الأدبيات الإسلامية التي شكّلت وعينا، وصدر منها «رسالة المؤتمر الخامس» للإمام الشهيد حسن البنا، «المصطلحات الأربعة» و«نظرية الإسلام السياسية» لأبي الأعلى المودودي، و«هذا الدين» و«المستقبل لهذا الدين» للشهيد سيد قطب، وكذلك فصول من كتبه أو بعض رسائله مثل «لا إله إلا الله منهج حياة»، و«الطريق إلى الله» للشيخ محمد متولي الشعراوي، و«تفسير سورة الفاتحة» للإمام ابن القيم، و«حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة» للشيخ ناصر الدين الألباني.

وكان الأخ محمود غزلان الأستاذ بكلية الزراعة جامعة الزقازيق الآن صاحب دور كبير في إصدار السلسلة سواء في اختيار الموضوعات أو صياغتها وتلخيصها في بعض الأحيان.

وقد كنت أعرف الأخ محمود غزلان قبل التحاقنا بالجامعة من مسجد الجمعية الشرعية الذي كنت أصلي فيه في منطقة الملك الصالح بمصر القديمة، وكان بيننا ارتباط صداقة ومحبة كبيرتين، وقد كان يميل للقراءة والثقافة أكثر من الحركة، لذلك لم يكن نشيطًا حركيًّا في كلية الزراعة حين كان طالبًا فيها، والتي كان المسئول فيها الأخ يونس فهمي.

كما كان لدخولنا في اتحاد الطلاب أكبر الأثر في التوسع في إقامة المخيمات الطلابية في الصيف والشتاء، وقد كان لهذه المخيمات أكبر دور في الحشد والتربية للأفراد، وكان يصل العدد لآلاف حيث كانت كل مباني المدينة الجامعية تمتلئ عن آخرها بالطلاب لمدة أسبوعين كاملين صيفًا.

وكانت المخيمات الطلابية فرصة كبيرة لنشر دعوتنا بين الطلاب لوجود عدد من الكبار والمؤثرين الحريصين على الحضور معنا مثل الشيخ محمد الغزالي والشيخ يوسف القرضاوي اللذين كان لهما دور توجيهي تثقيفي كبير، فضلًا عن قيام الليل والمحافظة على الصلوات الخمس والأذكار، والنشاط الرياضي وتعلم النظام والانضباط، فكانت هذه المخيمات محضنًا تربويًّا كبيرًا للطلاب، في ذلك الوقت وفي أغلب الأحوال كنا نقيم المخيمات الجامعية في المدينة الجامعية المخصصة لسكن الطلاب.

وأذكر أن الدكتور أحمد كمال أبو المجد - وكان وقتها وزيرًا للشباب والإعلام- حضر معنا أول مخيم جامعي يقام على مستوى جامعة القاهرة كلها، كان ذلك عام ١٩٧٣، وقد تكرر هذا في العام التالي فأقمنا المخيم عام ١٩٧٤ في المدينة الجامعية بعدما زاد عددنا وتضخم، وحضر المخيم من العلماء الشيخ محمد الغزالي والدكتور يوسف القرضاوي... وبعد ذلك صارت كل كلية تقيم مخيمًا صيفيًّا إسلاميًّا.

وقد كانت المخيمات ميدانًا لصنع القيادات الطلابية الإسلامية بطريقة عفوية وطبيعية، وكنت شخصيًّا لا أشعر بأي عقبة في إدارة تلك المخيمات والتجمعات على

الرغم من أنها كانت تجمع خليطًا من الأفكار والاتجاهات الإسلامية، وقد كانت مسألة الطاعة شبه العمياء للأمير تسيطر على الجميع فتساعد القائد في إدارة المخيم من دون صعوبات كبيرة، هذا كله مع نضوج مسألة الشورى بيننا تدريجيًا حيث كانت المناقشات تدور بيننا في جو من الاحترام والود.

من الجمعية الدينية إلى الجماعة الإسلامية

في هذه الفترة بدأ الحديث في مسألة السمع والطاعة لأمير الجماعة الإسلامية، وهو المسئول الأعلى في الجماعة؛ إذ لم نكن نسمي مسئول الجماعة الإسلامية بالرئيس بل بالأمير، وفي قضية الأسماء - مثل غيرها من القضايا - كانت تصرفاتنا عفوية وفطرية إلى حد كبير، فقد برز مصطلح «الجماعة الإسلامية» لأول مرة عام ١٩٧٣ وكنت وقتها رئيس اتحاد طلاب كلية الطب، وكان اختياره عفويًا ومن دون قصد، وكنا متأثرين في اختياره بقراءة كتب الأستاذ أبي الأعلى المودودي وكتب السيرة القديمة... وما أتذكره أننا كنا نوقع على السبورة التي نكتب عليها الآيات والأحاديث باسم الجمعية الدينية... وأذكر ذات مرة أنني وعبد الرحمن حسن كنا نكتب على السبورة آية أو حديثًا بتوقيع الجمعية الدينية فسألنا أنفسنا - وكانت السنة الثالثة من العمل الإسلامي- لماذا نكتب الجمعية الدينية ولا نكتب الجماعة الإسلامية ؟ وقررنا مباشرة تغيير الاسم... وكنا متأثرين - كما أسلفت - بأبي الأعلى المودودي الذي كان يعرف بـ«أمير الجماعة الإسلامية» بباكستان، ثم سرى الاسم في بقية كليات الجامعة كلها بعد ذلك.

أثناء عملنا في الجماعة الإسلامية بالجامعة، وعندما قررنا خوض انتخابات اتحاد الطلاب فرض الواقع نفسه في الترشيحات، فرأى إخواني أنني أصلح لرئاسة الاتحاد، في الوقت الذي كان فيه الأخ سناء أبو زيد أميرًا للجماعة الإسلامية وقتها لأنه كان أكثرنا ثقافة وقراءة وفقهًا، وفي البداية لم يكن هناك فصل بين اتحاد الطلاب والجماعة الإسلامية، بل كان يشيع في الأوساط الطلابية أنني من يقوم بتعيين أمراء الجماعة، ولكن وبعد حدوث احتكاكات بين الاتحاد وإدارة الجامعة حاولنا عمل نوع من الفصل بين مهام إمارة الجماعة ومهام رئاسة الاتحاد، ففي الصلاة كان يؤمنا

الأخ سناء أبو زيد وكان أكثرنا حفظًا للقرآن وذا صوت عذب، ولكن للحق فإن إمارة الجماعة لم تكن تفرض ذلك إذ لو تواجد من هو أكثر حفظًا للقرآن من الأمير كنا نقدمه للإمامة... وهو ما كان يحدث مع الأخ عبد الحافظ الذي كان معنا في المدينة الجامعية وكنا نقدمه لأنه كان يحفظ القرآن الكريم كله.

حدث التمايز بين الجماعة الإسلامية واتحاد الطلاب بشكل عفوي وبصورة بسيطة؛ فالأخ سناء لم يرشح نفسه لرئاسة الاتحاد لأنه كان عازفًا عن تلك الأمور ولم تكن تتفق وشخصيته التي تميل إلى الجانب الدعوي والوعظي والإرشادي في حين كان غيره صاحب دور بارز في مجال العمل العام فتم اختياره للترشح للاتحاد...

وكنا نفصل بين مهمة أمير الجماعة الإسلامية وبين مهمة رئيس الاتحاد، وكانت السلطة الحقيقية في يد أمير الجماعة، وكان الأخ سناء أبو زيد أميرًا للجماعة في الوقت نفسه الذي كنت فيه رئيسًا للاتحاد، ولكنه لأدبه الجم وأخلاقه الرفيعة وفرط محبته لي، كان لا يمارس سلطات هذا الدور معي حين أصبح أمير الجماعة، ولكنه كان يمارسه على الآخرين وكنت أساعده على ذلك طبعًا... فقد كنا نخشى أن تقضي أنشطة الاتحاد على أنشطة الجماعة الإسلامية، وكان لا بد من هذا الفصل بينهما.

وبعد أن تطورت الأمور وانتشرت الجماعة الإسلامية في الجامعة صار الاتحاد يمثل الجناح السياسي والاجتماعي للجماعة، فبدا الأمر وكأن الأمير هو المسيطر وصاحب القرار النهائي... وقد تأكد هذا الملمح عندما صار الأخ عصام العريان أميرًا للجماعة الإسلامية في جامعة القاهرة ثم جاء بعده الأخ حلمي الجزار الذي كان أميرًا لمجلس أمراء الجماعة الإسلامية... أيامها صار الأمير هو المرشد للجماعة أو الأقرب للقيام بهذا الدور، وكان يُرجع إليه بل كان يستطيع أن يوقف رئيس الاتحاد، طبعًا لم يكن يحدث هذا بقرار شخصي لأن الجماعة الإسلامية كان لها ما يعرف بمجلس الشورى، وكان هذا المجلس يُختار ممن برزوا في العمل الإسلامي وأثروا فيه... صحيح أنه لم يكن يشكّل وقتها بالانتخاب لكن كان في معظم الأحيان يتشكل وفق انتخاب حقيقي للقدرات والإمكانات التي تكشف عن نفسها بسهولة... فقد كانت أجواء العمل الإسلامي

كلها من النقاء والتجرد ولم يكن فيها آفات حب الظهور والسيطرة... كان بإمكان من يعمل أن يبرز ويقود دون أي اعتراض.

وفي عام ١٩٧٤ أو ١٩٧٥ قررنا أن نكوّن مجلسًا واحدًا لكل أمراء الجماعة الإسلامية في كليات جامعة القاهرة وننصب لهذا المجلس أميرًا، وقد جرت انتخابات بين أمراء الجماعة في جامعة القاهرة أسفرت عن اختيار أول أمير لمجلس أمراء الجامعة وهو الأخ عصام العريان من كلية طب قصر العيني، وهو ما جرى اتباعه في الجامعات الأخرى.

بعد ذلك وفي عام ١٩٧٧ تجمع كل أمراء الجماعة الإسلامية في جامعات مصر كلها تحت اسم الجماعة الإسلامية في مصر، وانتخبت أول أمير لها وهو الأخ حلمي الجزار من كلية طب قصر العيني أيضًا فقد كانت معقلًا للحركة الإسلامية الجديدة.

في هذا التوقيت بدأت الزيارات تتزايد بين قيادات ومؤسسي الجماعات الإسلامية في كل الجامعات... وبدأنا باعتبارنا الجماعة الأولى المؤسسة في زيارات موسعة لنظرائنا في الجامعات الأخرى من الإسكندرية إلى أسوان، كما التقينا معًا في المخيمات الصيفية، فزرنا جامعة الإسكندرية والتقينا بقياداتها مثل الإخوة: إبراهيم الزعفراني وخالد داود وحامد الدفراوي، وفي جامعة المنصورة التقينا أحمد راسم النفيس (الذي انفصل عن الجماعة بعد ذلك وصار شيعيًّا!)، وأنور شحاتة - رحمه الله - في جامعة طنطا، وفي أسيوط التقينا برموز الجامعة مثل محيي الدين عيسى، والأخ أسامة سيد أحمد. وكان الميزان الذي نحكم به على الشخص في اختياره أميرًا من عدمه هو مدى التزامه الشخصي ونشاطه في التجمعات التي كنا نلتقي فيها وأيضًا نشاطه في محافظته.

كنا لا نتوقف عن التنقل بين الجامعات للتواصل بين القيادات، وكنا نقضي الصيف كله في التنظيم لهذه اللقاءات... أما تمويل تحركنا الشخصي لكي ننتقل ونرى بعضنا فكان بالتبرع فيما بيننا، حتى إننا كنا في بعض الأحيان لا نجد ما ندفع به أجرة الدرجة الثانية في القطار فنضطر لركوب الدرجة الثالثة، وإذا لم تكفِ النقود لسفر ثلاثة اكتفينا بأن يسافر اثنان ويبقى الثالث.

بناء تنظيم «الجماعة الإسلامية»

لم تبدأ الجماعة الإسلامية تنظيمًا حركيًّا بالمعنى الكامل لكلمة تنظيم، وإنما بدأ التنظيم بشكل بسيط استجابة لمطالب العمل الإسلامي الذي شهد توسعًا كبيرًا في وقت قياسي، وقد كانت بدايته بالشكل البسيط الذي يصفه حديث النبي ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فأمِّروا أحدكم »، فأخذنا شكل التنظيم البسيط الذي كنا نتميز به في بدايات العمل، إذ كان المسئول لا يتحدد عن طريق انتخابه بجلوسنا مع بعضنا البعض؛ وإنما يُنتخب بشكل طبيعي حيث كانت شخصيته تفرض نفسها على المجموع بأدائه والتزامه ونشاطه.

لهذا كان ظهور القيادات طبيعيًّا ولم يكن يثير خلافات، فكل مسئول معروف ومميز ومشهود له في الأقسام أو الدفعات التي تخضع لمسئوليته داخل الكليات، ولم يكن هناك مسئول مجهول بل كان الجميع معروفًا في مكانه، وكان ذلك ساريًا على مسئولية كل نشاط من الأنشطة (دعوية – خدمية)، وكان كل مسئول معه مجموعة عمل يلتف حولها جمهور الطلاب ويتفاعل مع نشاطها.

ويمكن القول إن المجموعة القيادية الأولى اختيرت بانتخاب طبيعي لقدراتها وعطائها، فكانت هناك مجموعة قيادية مميزة مثل الإخوة عبد الرحمن حسن وصفاء أبو زيد وحسن عبد الفتاح ومحمد يوسف... وغيرهم ممن أعطوا العمل الإسلامي والطلابي زخمًا ونقلوه نقلة هائلة.

تصاعد النشاط الإسلامي

كانت حركة الجماعة الإسلامية تنطلق بقوة وتكسب أرضًا جديدة كل يوم، وكان العام ١٩٧٦ من أكثر أعوام الجماعة الإسلامية نشاطًا حتى إن چون كوني مراسل صحيفة مونيتر كتب عن «عودة الإخوان» في مصر. في هذا العام بدأت الجماعة الإسلامية سُنّة إقامة صلاة العيد في الخلاء فنظمت الجماعة الإسلامية في الإسكندرية صلاة العيد في أرض استاد الإسكندرية (كانت في ديسمبر) وحضرها نحو أربعين ألف مُصَلٍّ وأمَّ الناس فيها الشيخ محمود عيد... ونظمت الجماعة الإسلامية في

القاهرة صلاة العيد في ميدان عابدين وأمَّ الناس فيها فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي وحضرها أكثر من خمسين ألفًا.

وفي هذا العام نزل عدد من الدعاة والأساتذة انتخابات مجلس الشعب وكان منهم في القاهرة الشيخ صلاح أبو إسماعيل و في الإسكندرية الأستاذ عادل عيد. وذلك تحت مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية... وكانت الدعاية كلها تركز على أن تطبيق الشريعة هو بداية كل إصلاح وأنه سيعيد وجه مصر المسلمة... ومما رفعته الجماعة الإسلامية وقتها من لافتات: «إلى الله يامصر... معًا من أجل الشريعة... معًا ضد الإلحاد والإباحية... لا شرقية ولا غربية إسلامية قرآنية...» كما رفع المرشحون آيات قرآنية مثل ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ و ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

مع الحركة الطلابية الإسلامية العالمية

وفي هذه الفترة أيضًا انطلقت الحركة الطلابية الإسلامية في العالم، وكان من أبرز مؤسساتها الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، وكان قد تأسس قبل ظهور الجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية حيث يعود تاريخه إلى عام ١٩٦٩ حيث تأسس في مدينة أخن الألمانية ونشأ من خلال عدد من الحركات الإسلامية في الغرب مع حزب ماشومي في إندونيسيا والجماعة الإسلامية في باكستان... وكان من أبرز رموزه الأخ مصطفى الطحان والأخ أحمد التوتنجي، وكان إطارًا يسعى إلى التنسيق بين الأُطر الطلابية الإسلامية في العالم، وكان يتحرك في ثلاثة مسارات: أولها ترجمة الفكر الإسلامي ونشره إلى لغات مختلفة «وصلت إلى عشرين لغة»، فنشر الاتحاد كتب الإمام البنا «رسالة الجهاد»، والمودودي «مبادىء الإسلام، ونظام الحياة في الإسلام، ودور الطلبة المسلمين في بناء العالم الإسلامي»، وسيد قطب «هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، ومعالم على الطريق، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، وعبد القادر عودة «الإسلام وأوضاعنا القانونية»، ومالك بن نبي «الظاهرة القرآنية»، وأبو الحسن الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»... وقد سُجل الاتحاد كمنظمة حقوقية في الأمم المتحدة عام ١٩٧٧.

الفصل الرابع

نحن والسادات والصفقة التي لم تتم

ما إن يبدأ الحديث عن الحركة الإسلامية في الجامعة في السبعينيات حتى تبدأ الأسطوانة المكررة عن أن الحركة الإسلامية في الجامعة كانت صنيعة السادات وأنه كان يسيطر عليها ويوظفها لضرب خصومه الشيوعيين والناصريين... ولن أتعرض للجدل في هذا الادعاء كثيرًا وإنما سأكتفي بشهادتي كأحد الذين عاصروا هذه الفترة وأسسوا العمل الإسلامي فيها، فقد كنت في موقع من لا تغيب عنه المعلومات التفصيلية لأي صفقة كان يمكن أن تعقد بين السادات وبين الحركة الإسلامية في الجامعات، بل أقول جازمًا إنه لو كانت هناك صفقة لعقدها السادات معي شخصيًّا، بحكم مسئوليتي عن الحركة الطلابية الإسلامية، وأشهد الله أننا لم نعقد مع النظام أو مع أحد أي صفقة.

إذا كنا نتحدث عن رغبة السادات بل سعيه إلى السيطرة على الحركة الإسلامية في الجامعة وتوظيفها ضد خصومه فإن هذا كان صحيحًا، لكنه لم يتصل بنا مباشرة بأي شكل من الأشكال.

وربما حاول عبر مسئولين في الدولة الاتصال بنا لتوظيف الحركة ضد خصومه خاصة من الشيوعيين، لكن هذه المحاولات فشلت، كما أننا لم نكن الرهان المناسب له في هذا الغرض، فقد كنا بالأساس حركة اعتراض ورفض ضد الحكومات «المنحرفة عن الدين» التي «لا تطبق شرع الله »، ومن ثَمَّ فقد كان مشروعنا – على

الأقل في بدايته – أساسه وجوب إزالة هذه الحكومات وإقامة أخرى تقيم شرع الله... وهو ما لم يكن ليشجع النظام على فتح اتصال صريح ومباشر معنا.

ورغم أننا دخلنا في مواجهات مع الشيوعيين في الجامعة بعضها تطور إلى استخدام العنف البدني إلا أنها كانت مواجهة عفوية تلقائية يحكمها منطق الصراع بين تيار ديني عفوي متشدد ليس لديه منهج منضبط وبين تيار كان دائمًا ما يتعرض للثوابت الإسلامية بالنقد والسخرية بما تبدو معه المواجهات أمرًا طبيعيًّا وليست مقصودة أو موظفة من قبل النظام.

وسأروي واقعة محددة تكشف عن أننا كنا واعين تمامًا باستقلاليتنا عن النظام وحريصين على ألا يوظفنا لمصلحته، فقد كانت هناك مظاهرة طلابية ضد إسرائيل، وقام الطلاب الشيوعيون بمظاهرة أخرى، كنت وقتها رئيس اتحاد طلاب الجامعة ومعي الأخ محمد عبد اللطيف نائب رئيس اتحاد كلية الطب (صاحب مؤسسة سفير للنشر والدراسات، ومن مؤسسي حزب الوسط)، وكان الدكتور صوفي أبو طالب هو نائب رئيس الجامعة آنذاك، فغضب مستنكرًا تظاهر الشيوعيين، فقال لنا وكنا في لقاء معه: إزاي تسيبوا الشيوعيين يقوموا بمظاهرة؟!

فقلت له: هم أحرار في ذلك.

فقال: إزاي؟ وانتم متقدروش توقفوهم؟! (وكأنه يحرضنا عليهم).

فرد عليه الأخ محمد عبد اللطيف: نحن لا نُستخدم عصًا في يد أحد.

كان رد الأخ محمد تلقائيًّا وعفويًّا ولكنه كان يعكس استقلاليتنا... كان يمكن فعلًا أن نشتبك مع الشيوعيين وقد يتطور الأمر للمواجهة البدنية... لكن ذلك لم يكن ليتم لمصلحة أحد أو بتوجيه منه... كان يحدث وفق قناعاتنا التي يمكن أن نراها – الآن – خاطئة لكنها لم تكن يومًا لأحد إلا لفكرتنا ودعوتنا.

كانت مواجهتنا مع الطلبة الشيوعيين تعبيرًا عن حسّنا الجهادي أحيانًا الذي كان يدفعنا إلى السعي إلى تغيير المنكر باليد؛ أي بالقوة... أذكر أن اتحاد طلاب كلية الطب عام ١٩٧٣ أقام حفلًا به رقص وغناء ماجن، وفكرنا كيف نمنع هذا الحفل

فاهتدينا إلى فكرة أن نحتل المدرج قبل بدء الحفلة بنصف ساعة، فجلسنا جميعًا نقرأ القرآن، ولما جاءوا لم يستطيعوا أن يخرجونا ولم تستطع الفرقة الغنائية الدخول فانتهى بذلك الحفل!

أما في المرة التالية التي أرادوا فيها إقامة الحفل فقد أغلقوا الأبواب ولم يسمحوا بالدخول إلا لمن يحمل تذكرة... وساعتها لم يكن هناك بد من مسيرة ضخمة واقتحام الأبواب بالقوة ودخول المدرج وتعالت التكبيرات وساد الجوَّ نوعٌ من الاضطراب وانتهى الحفل بالفشل!! هذه نماذج للعنف الذي كانت الحركة تتورط فيه لكنه لم يكن يومًا ما بتوجيه من النظام أو بتنسيق معه.

ما أتصوره أن السادات رأى أن يضرب التيار الشيوعي بطريقة تلقائية ودون مجهود منه، وذلك بترك التيار الإسلامي يعمل بحرية وينتشر دون وضع العراقيل أمامه أو ملاحقته... وكانت الساحة مهيأة تمامًا لنمو هذا التيار وانتشاره عفويًّا وطبيعيًّا... ولم تكن هناك صفقة أو اتفاق سري كما أشاع خصوم الحركة الإسلامية... ما أقطع به أن أحدًا لم يتصل بنا مباشرة أو يناقش معنا اتفاقات أو يعرض علينا صفقة... ولو كان شيء من هذا حدث لتمّ الاتصال معي بحكم مسئوليتي عن الحركة الطلابية الإسلامية في جامعات مصر.

جماعة شباب الإسلام

وحين أروي شهادتي في قضية العلاقة بين الحركة الطلابية الإسلامية والسادات فإنني أتحدث عن الجسم الرئيسي لها الذي صار يعرف بالجماعة الإسلامية والذي شرفْت بأنني كنت أقدم مؤسسيها، وحديثي في هذا من خلال دوري وموقعي دون أن أصادر على ما قد يكون حدث بالنسبة لفصائل هامشية نسبت للحركة الإسلامية في هذه الفترة دون أن يكون لها وزن معتبر بما يصح معه القول إنها لا تمثل الحركة الإسلامية... أقول ذلك وعيني على قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

فقد فوجئنا ذات يوم - وأظنه في نهاية عام ١٩٧٣ - بلافتات تملأ ساحات كلية الهندسة جامعة القاهرة تحمل اسم «جماعة شباب الإسلام» وكانت اللجنة الدينية

هي التي تمثلنا في الكلية، وكان المسئول عنها الذي يمثلنا في الكلية الأخ عصام الشيخ، وحين سألناه عن هذه اللافتات أخبرنا بأنه فوجئ مثلنا بهذا الأمر، وأن هؤلاء الطلاب الذين كوّنوا جماعة شباب الإسلام لا علم لنا بهم ولم يكن لهم أي نشاط معنا إطلاقًا قبل ذلك، وأنهم الآن يحدثون الطلاب عن الإسلام، بل حتى الطالبات أيضًا يقفون معهن ويحدثونهن عن الإسلام، وخَلُصنا وقتها إلى نتيجة جازمة بأن هؤلاء الطلاب من جماعة شباب الإسلام غير متدينين، ولا ينتمون إلينا، لأن الوقوف مع الطالبات والحديث معهن كان في هذه الفترة ممنوعًا، حتى وإن كان هذا الحديث عن الإسلام.

لقد كان نمط التزامنا الديني سلفيًا غارقًا في السلفية كما قدمت، ولم يكن مقبولًا لدينا الحديث عن دعوة الطالبات، ورأينا وقتها أن تكون هذه مهمة الطالبات الأخوات الممثلات للحركة الطلابية الإسلامية، وأما حديثنا - نحن الرجال معهن- فلا يجوز أن يكون إلا في إطار محاضرة عامة أو خطاب عام. وكان هذا الأمر فارقًا بيننا وبين جماعة شباب الإسلام.

كما كان خطابنا صارخًا ثوريًا في نقد النظام الحاكم وفي دعوته لتطبيق شرع الله، في حين كان خطاب جماعة شباب الإسلام يبدو فيه الميل للنظام، كما لاحظنا أيضًا ضعف التزامهم الشخصي وعدم حرصهم على السنن الظاهرة مثل اللحية، وأداء الصلوات في المسجد، وهو ما لم يكن موجودًا لديهم وكان له دور في عدم استمرارهم بعد ذلك... ما جعلنا نرفضهم وننظر إليهم نظرة متعالية، باعتبار أننا ملتزمون أكثر منهم... فقد كنا نحرص على التمسك بكل ما نعتبره سُنة في الدين، فكنا في حرصنا على الالتزام بالهدي الظاهر نرتدي الجلباب أحيانًا في الجامعة مثلًا، وكانت تميزنا اللحى بشكل واضح، حتى إن الدكتور صوفي أبو طالب رئيس الجامعة وقتها طلب مني أن أهذب لحيتي لأنها كانت كثيفة جدًّا!

وسمعنا بعد ذلك أن محمد عثمان إسماعيل أحد أركان نظام السادات والمقربين منه - و كان أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكي ثم محافظًا لأسيوط فيما بعد - حين وجد أننا لا نصلح أن نكون آلة في يد النظام نتيجة خطابنا ومواقفنا أراد أن يصنع له

تيارًا إسلاميًا خاصًا مرتبطًا مباشرة بالنظام وممثلًا لتوجهاته بين الطلاب، وربما كان مسئولًا عن تأسيس جماعة «شباب الإسلام» هذه، لكن الذي حدث غير ذلك تمامًا فقد انحسرت هذه الجماعة واختفى أعضاؤها من على الساحة، حتى إنها لم تخرج من كلية الهندسة ولم نرَ لها أي أثر في كلية أخرى أو حتى في كلية الهندسة نفسها في الأعوام التالية، وأنا نفسي نسيت أسماء قياداتها ولم أعد أتذكر سوى أشهرهم المهندس وائل عثمان وقد سمعت أنه كتب عن تجربة هذه الجماعة في كتاب أسماه: «أسرار الحركة الطلابية»، وله فيما أعرف كتاب اسمه: «حزب الله في مواجهة حزب الشيطان...» وأتذكر منهم كذلك عصام الغزالي وهو شاعر، والمهندس عدلي مصطفى وهو الآن صاحب مجموعة مدارس خاصة.

كانت الساحة مفتوحة لنا ولغيرنا

الحق يقال إن السادات قد أزال العوائق أمام الحركة الإسلامية، لكنه – وللإنصاف والأمانة أيضًا – لم يضع أي عوائق أمام الآخرين كي يعملوا وينشطوا في الساحة... السادات كان ذكيًا في إدراكه ومعرفته بالمجتمع المصري المتدين المحب للإسلام، وكان على ثقة بأنه لو أزال تلك العوائق التي كانت أمام الإسلاميين فسوف يجرف تيارهم جميع التيارات الأخرى.

كانت الدنيا مفتوحة أمامنا... ولم تكن هناك العقبات التي كانت في عهد النظام الناصري فيما قبل أو نظام مبارك فيما بعد... كنت وقتها – كقيادة طلابية – أستطيع مقابلة رئيس الجامعة صوفي أبو طالب (رئيس البرلمان فيما بعد) أو حافظ غانم نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم في أي وقت، خاصة إذا حدثت أية مشكلة مع الحركة الطلابية أو الجماعة الإسلامية في أي جامعة من الجامعات المصرية.

كان هناك أيضًا تسامح أو تساهل من الدولة مع الإخوان المسلمين بعد خروجهم من السجون، حيث سُمح لهم بالتواجد وبالنشاط العام؛ مثل إقامة الاحتفالات الخاصة بالمولد النبوي في الميادين العامة، ولم يكن الجهاز الأمني يتدخل في أي

نشاط لنا أو لهم من قريب أو من بعيد... حتى جاءت أواخر السبعينيات حين انقلبت الدولة على الإسلاميين جميعًا وبدأ التدخل الأمني يظهر بشدة.

لقد تميز عهد السادات بالحرية بما لم تشهده مصر منذ قيام الثورة، وكانت الحرية حقيقية، حرية عمل وليست حرية «كلام» كما هو الحال في عهد الرئيس مبارك الذي أطلق حرية الرأي وقَيّد حرية العمل السياسي والعمل العام عمومًا.

لم نسمع أبدًا في عهد السادات، فترة السبعينيات، أن أحدًا اعتقل منا أو من الإخوان، أو حتى تم استدعاؤه أمنيًّا، ولم يمنعنا من توزيع كتاب أو مطبوعات من أي نوع، ولم نرَ ضابط أمن دولة يدخل الجامعة ويعترض على أي عمل من أعمالنا... باستثناء ما حدث مع التنظيم الشيوعي وحركة الفنية العسكرية.

لم نعرف هذا التدخل المنحط الذي شهدته البلاد فيما قبل وبعد السادات، ولم نره أو نسمع به أبدًا معنا ولا مع غيرنا... حتى إننا كنا نخيّم بألفي طالب في منطقة «العين السخنة» دون أي تدخل من الجهاز الأمني بأي شكل من الأشكال، وكان جميع الطلاب في المخيم ملتحين يواظبون على الصلاة، كنا ندعو العلماء من جميع الاتجاهات الإسلامية لإلقاء المحاضرات دون أن يسألنا أحد لماذا أتيتم بهذا؟ أو: إن هذا الشخص ممنوع!!

وفي محافظة المنيا كانت الجماعة الإسلامية تقيم مخيمها في المدينة الجامعية لجامعة المنيا ويحضره مئات الطلاب يبدأون يومهم بطابور رياضي يقطع المدينة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب تصاحبه الهتافات الإسلامية المدوية دون أن يتعرض لنا أحد.

وأذكر أنني كنت – وقت رئاستي لاتحاد طلاب الجامعة – أطبع منشورًا فيه هجوم شديد على النظام في إحدى المطابع بمنطقة السيدة زينب، وتصادف أن الشيوعيين كانوا يطبعون منشورًا آخر في المطبعة نفسها، وجاء إليّ صاحب المطبعة ليخبرني أن الشيوعيين يطبعون منشورًا ضد الجماعة الإسلامية، ولا أدري من الذي أبلغ بوليس النجدة أنه ستقوم مشاجرة بين مجموعة من الطلاب – شيوعيين وجماعات – في السيدة زينب، فحضرت الشرطة في الوقت نفسه الذي كنا قد نقلنا المنشور معنا إلى

السيارة التي ستنقله... أراد الضابط أن يوقفنا فرفضنا أن نطيع أوامره، فأطلق رصاصة على إحدى إطارات السيارة حتى لا نستطيع التحرك بها، فقامت بيننا وبينه مشاجرة كبيرة، وقمنا بتوجيه السباب والشتائم له وذهبنا إلى قسم شرطة السيدة زينب، حيث تم الاستيلاء على المنشور من السيارة، وبعد قليل وجدت المأمور يقول لي: تفضل إلى حيث تريد!! وكأن شيئًا لم يكن.

لم يعجبني هذا ولم أعتبر أنها مكرمة فطلبت منه المنشور الذي صادرته الشرطة فرفض إعطاءه لي، فقلت له: إنني لن أتحرك من قسم الشرطة إلا بعد أن آخذ المنشور معي! فأصر على الرفض واتصل بضابط من جهاز مباحث أمن الدولة فأخذ الضابط يرجوني أن أذهب من دون المنشور، ولما رفضت الخروج من قسم الشرطة، اتصلوا بنائب رئيس الجامعة الدكتور محمود درويش، فأتى إلى قسم الشرطة لكي يقنعني بأن أنصرف من دون المنشور، كل ذلك وأنا مصمم على رأيي!! ولم أتنازل حتى أخذت معي المنشور أخيرًا وذهبت مع الدكتور محمود درويش في سيارته إلى الجامعة ومعي المنشور، لتهدئة زملائي في اتحاد الطلاب والجماعة الإسلامية الذين كانوا قد انطلقوا في مظاهرات عارمة داخل الجامعة احتجاجًا على القبض عليَّ!!

كانت حياتنا عادية ومستقرة حتى ونحن نقيم الدنيا ولا نقعدها مظاهرات وإضرابات واحتجاجات... ولا أتذكر أنني كنت هدفًا للتضييق أو المنع من قبل الدولة إلا مرة واحدة؛ وهي بعد تخرجي... فحين حصلت على شهادة البكالوريوس من كلية الطب عام ١٩٧٧ كان ترتيبي العشرين بين خريجي دفعتي بتقدير «جيد جدًّا مع مرتبة الشرف»... فصدر قرار بتعييني في الجامعة، وكنت كلما أعلنت إحدى كليات الطب عن تعيين معيدين أتقدم لها فإذا بها تلغي قرار التعيين فيها... فلا تقبلني ولا تقبل غيري من الطلاب... وظللت على هذا الحال فترة حتى قابلني أحد الزملاء بعد ذلك في إحدى طرقات كلية طب قصر العيني وكان ثائرًا جدًّا ويصرخ في وجهي يتهمني بأنني تسببت في ضياع مستقبله!! تمالكت نفسي وهدّأته ثم سألته عن سبب هذا الاتهام، فأخبرني بأنه علم من قريب له مسئول في الدولة أنهم يلغون الوظائف التي تعلن عنها الكليات بسبب تقدمي أنا لها... ومن ثَمَّ فلن يجد فرصة للتعيين هو

وآخرون بسببي! وأمام هذا لم أجد سوى الاعتذار له ووعده أنني لن أتقدم لأي وظيفة من التي تعلن عنها الكليات مرة أخرى... وقد علمت أن السبب في ذلك موقفي من الرئيس السادات الذي قرر عقابي بمنعي من التعيين في أي جامعة من جامعات مصر... وهو عقاب أقل بكثير مما يستطيعه رئيس جمهورية تعرض لما تعرض له السادات.

الصدام مع السادات..على الهوا!

كانت مصر تعيش توترًا وأجواء غليان بسبب الرفض الشعبي لموقف الرئيس السادات واتجاهه للصلح مع العدو الصهيوني... وفي شهر يناير من عام ١٩٧٧ أعلنت الحكومة رفع أسعار عدد من السلع الرئيسية ومن بينها الخبز الذي هو أهم سلعة للشعب المصري المطحون حتى إنهم يسمونه «العيش» كأنه لا يمكن العيش من دونه! فكان أن اندلعت مظاهرات شعبية عارمة احتجاجًا على هذا القرار وعلى غلاء المعيشة وهي المظاهرات التي عرفت بمظاهرات الخبز والتي سماها السادات «انتفاضة الحرامية».

كانت مظاهرات شعبية عفوية وتلقائية دون تنظيم من أحد، ولكن اليساريين حاولوا أن يركبوا موجتها ويستغلوا الوضع وكأنهم هم المنظمون لها. وقد شاركت شخصيًّا في هذه المظاهرات ككثير ممن شاركوا، وكانت مشاركتي ومشاركة إخوة كثيرين كأفراد وليس كتيار سياسي؛ وجدنا مظاهرات تجتاح البلاد فشاركنا فيها ضمن حالة السخط والغضب على سياسات الحكومة وموجة الغلاء... والحقيقة أن ما حدث كان دليلًا على حيوية الشعب المصري؛ فقد كانت ارتفاعات الأسعار طفيفة وقد لا تذكر إذا ما قورنت بما يجري الآن ولا يتحرك له أحد! كان الشعب المصري أيام السادات على درجة عالية من الوعي والحيوية دفعته للتحرك مباشرة ومن دون توجيه من أحد للنزول إلى الشارع احتجاجًا وغضبًا... نزلنا الشارع كبقية الشعب ولم يكن لنا ولا لغيرنا أي دور قيادي لهذه الانتفاضة... وقد شاركت في هذه المظاهرات ولم أشعر مطلقًا أن هناك تنظيمًا معينًا يقودها أو يقف وراءها.

وقد تصور السادات أن هناك تنظيمًا وراء هذه الثورة الشعبية للإطاحة به، لذلك خرج بطائرته سريعًا من القاهرة إلى أسوان، وحين علم أن الأمر هو انتفاضة شعبية لم يكن وراءها أحد، عاد إلى القاهرة بعد سيطرة الجيش على الوضع، وألقى خطابه الذي ذكر فيه أن الديموقراطية لها أنياب.

بعد هدوء الوضع واستتباب الأمن بدأ النظام التحرك لامتصاص الغضب وإعادة الهدوء للبلاد... وقرر السادات - وكانت هذه عادته - أن يلتقي ببعض القوى السياسية والصحفيين والمفكرين، وكان من الذين التقى بهم، اتحاد طلاب الجامعات، وكنت في هذا الوقت رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة وأمين لجنة الإعلام باتحاد طلاب مصر.

أبلغنا بموعد اللقاء وكان في فبراير ١٩٧٧، ولكن - وهذا ما أشهد به - لم نخضع لأي استجوابات قبلها، ولم يلتق بنا أحد قبل لقاء الرئيس ليعطينا تعليمات خاصة بكيفية مخاطبته أو ما ينبغي أن نقول وما لا ينبغي كما يحدث الآن... كان اللقاء عاديًّا وطبيعيًّا كما لو كنا سنلتقي شخصية عادية.

وذهبنا للقاء الرئيس في استراحته بالقناطر الخيرية وكان هناك عدد من أركان النظام، وكان منهم بطبيعة الحال حسني مبارك نائب الرئيس ومصطفى كمال حلمي وزير التعليم العالي وقتها ورئيس مجلس الشورى فيما بعد.

وكان هذا اللقاء على الهواء ينقله التليفزيون ووكالات الأنباء والصحف وكل وسائل الإعلام لكي يعطي انطباعًا للعالم أنه يلتقي مع جميع طبقات الشعب، وأن المصريين ملتفون حوله، وأن الذي حدث ليس إلا «انتفاضة حرامية» وليست انتفاضة شعبية.

وبدأ اللقاء بحديث الرئيس وبعد ذلك طلب منا الكلام، وكنت أنا الملتحي الوحيد في مجلس الاتحاد، وأذكر من زملائي الحاضرين حمدين صباحي وشعبان حافظ وزياد عودة وهو ابن الشهيد عبد القادر عودة ولكنه كان ناصريًّا!

رفعت يدي أكثر من مرة لأتكلم ولكنه كان يتجاهلني ولم أكن أدري سبب هذا التجاهل، وحين لم يرد الرئيس أن يأذن لي بالحديث قمت واتجهت للميكروفون دون إذن من أحد، وتكلمت وكانت كلمتي قاسية.

تحدثت إليه عن دور الدولة تجاه الشباب وكيف أنه صار غير واضح ما تريده الدولة منا، وأن هناك تناقضًا بين العلم والإيمان الذي يدعو إليه الرئيس وبين الممارسات الفعلية للدولة، وضربت له مثلًا بما حدث مع فضيلة الشيخ الغزالي الذي أبعد من وظيفته كداعية وعالم يتصل بالناس ويعلمهم ووضع في عمل إداري، وكيف تعاملت الدولة مع المظاهرات السلمية التي نظمها الطلاب اعتراضًا على ذلك، حيث هاجمتها قوات الأمن المركزي... وكيف أنه بهذا المنطق لم يعد حوله إلا من ينافقونه... وحين سمع السادات كلامي بدا عليه التأثر والانفعال ثم مال برأسه إلى أسفل حتى خشيت عليه من أن يكون قد أصابه مكروه... وخمنت- كطبيب -أنه ربما تأثر صحيًّا... لكنه سرعان ما رفع رأسه غاضبًا غضبًا شديدًا واحتد عليَّ وصرخ في وجهي: اقف مكانك... اقف مكانك... وأخذ يرد على كلامي بقسوة... ولم أستطع أن أكمل كلمتي أو أستعرض النقاط الأخرى التي أردت أن أكلمه فيها.

خوف عليَّ... ومحاولات لسحب اعتذار للسادات

كانت المواجهة على الهواء، وخرجت بعض الصحف القومية تهاجمني وتتهمني بأنني قد تجاوزت حدود اللياقة، فيما طرح البعض الآخر الموضوع على أنه شجاعة وجرأة قابلتها سعة صدر من السيد الرئيس الأب والمعلم... كما ظهرت نكات في الشارع تتندر بما جرى بين طالب الجامعة وبين رئيس البلد.

وقد كانت هذه المواجهة سببًا في قلق الكثيرين من إخواني وأصدقائي وأقاربي على ما قد يحدث لي من جرائها... أذكر أن الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – قد أرسل لي يطمئن عليَّ وكان قد تأثر بما ذكرته من دفاع عنه ونقد لإبعاده عن منبره وجمهوره إلى وظيفة إدارية... وأتذكر أن الأخ محمد عبد القدوس قد زارني في اليوم التالي للواقعة، وأحسب أنها كانت بطلب من الشيخ الغزالي للاطمئنان عليَّ، فقد كانت تجمع الأخ محمد والشيخ الغزالي وقتها محبة توثقت فيما بعد بزواج الأخ محمد عبد القدوس بابنة الشيخ الغزالي.

وقد ظلت لهذه الواقعة تداعيات على أسرتي لفترة طويلة... وأذكر أن والدي – رحمه الله – قضى شهرين كاملين في قلق وعذاب نفسي بسبب هذا اللقاء مع الرئيس،

فقد كان يتلقى يوميًّا مكالمات من أحد معارفه يخبره أنه سمع أنني قد صدمتني سيارة في مكان كذا، أو أنني تعرضت لاعتداء في مكان آخر... فينزل من فوره إلى ذلك المكان ويبحث ويسأل، ولا يجد شيئًا، فيعود إلى البيت مرة أخرى... وكثيرًا ما كنت أجده أمامي في الكلية لكي يطمئن عليَّ بعد سماعه خبرًا من تلك الأخبار التي كانت تأتيه يوميًّا بالتليفون... وظل على هذا الحال فترة شهرين أو يزيد حتى أيقن أنها مجرد شائعات أما أنا فلم يتعرض لي أحد ولم أستدع من أي جهاز أمني، اللهم إلا محاولات غير مباشرة من بعض الشخصيات لكي أعتذر للرئيس، منها ما فعله الدكتور صوفي أبو طالب الذي كان رئيسًا للجامعة، فقد فوجئت به بعدها يسألني عن رأيي في زيارة للرئيس السادات.

فسألته: ماذا أفعل في تلك الزيارة؟ فرد قائلاً: لكي تقول للريّس ما عندك.

وقد أدركت هدفه من هذه الزيارة وهو أن أظهر أمام الإعلام أنني ذهبت للاعتذار للسيد الرئيس... فقلت له: سوف أفكر في ذلك ثم أتخذ قرارًا... وأراد هو أن ينتزع مني موافقة فورية على هذه الزيارة، ولكنني اعتذرت أخيرًا بطريقة مهذبة، ولم أوافق عليها.

الفصل الخامس

المستقبل: تنظيم جديد أم إحياء لقديم؟

وفي إطار تطور العمل الإسلامي في الجماعة جرى النقاش بيننا مبكرًا في قضيتين منفصلتين ولكنهما متصلتان أيضًا: الأولى تتعلق بمبدأ تنظيم الجماعة الإسلامية الجديدة التي كانت عفوية تلقائية في ظهورها وتطورها، والثانية تتعلق بالشكل الذي يفترض أن يكون عليه تنظيم الجماعة؛ هل ننشئ تنظيمًا جديدًا مستقلًّا أم نلتحق بتنظيم الإخوان بعد خروجهم من السجون؟

كانت القضية مطروحة للنقاش مبكرًا وحتى قبل خروج الإخوان من السجون، ولكنها صارت أكثر حضورًا وإلحاحًا مع اقتراب خروجهم والذي يمكن أن نؤرخ له ببداية عام ١٩٧٤، كان موت جمال عبد الناصر بداية الأمل... ثم وجدنا في سياسات السادات ما يؤشر بقوة على قرب الخروج الكبير للإخوان.

في بداية السبعينيات لم تكن هناك تنظيمات إسلامية يمكن أن تغرينا بالتفكير في الانضمام لها، كانت هناك فقط بعض الجمعيات الدعوية والخيرية محدودة التأثير وغير منظمة العضوية مثل الجمعية الشرعية وجماعة أنصار السنة؛ إضافة إلى تنظيمات سرية صغيرة علمنا بها في وقتها أو فيما بعد، ولم يكن لها من العلانية أو الرؤية ما يجعلها محط اهتمام لنا أو محور نقاش في مستقبل العلاقة معها على الرغم من محاولات بعضها الاتصال بنا أو استقطاب بعضنا... مثل بقايا «جماعة المسلمين» أتباع شكري مصطفى الذين أعتبرهم من بقايا تنظيم ١٩٦٥ والذين جرت تسميتهم فيما

بعد بجماعة «التكفير والهجرة»، ومثل مجموعة الفنية العسكرية التي لم نكن نعرفها حتى فشل عمليتها الانقلابية والتي اكتشفنا معها أنها نجحت في استقطاب اثنين ممن كانوا يشاركوننا العمل العام في الجماعة الإسلامية بكلية طب قصر العيني.

كنا - مجموعة الجماعة الإسلامية - نرفض الاتصال بتلك التنظيمات السرية الأخرى، ورغم ذلك أخذنا نتداول كل ما كانوا يكتبونه في كراساتهم الخاصة التي كانوا يأتون بها إلينا، خاصة جماعة المسلمين «التكفير والهجرة» فهؤلاء خاصة رفضنا أفكارهم بشكل قطعي، لقيامها على تكفير المجتمع كلية... وأذكر أن أحدهم ويدعى «عبد اللطيف» وكان يعمل في إحدى المدارس الصناعية، اتصل بنا وكان يتحاور معنا في هذا الأمر... إلى أن سمعنا بأنه قبض عليه بعد ذلك.

وأزعم أننا كنا ناضجين وعلى وعي جيد فيما يخص قضية تكفير المجتمع... لم نقبلها مطلقًا رغم تشوش أفكارنا وغياب أي منهجية تحكمها... وقد أدركنا خطورة هذه الأفكار -مبكرًا- على المجتمع فتعقبناها وطاردناها بل طاردنا أصحابها الذين كانوا يتصلون بغيرنا وينشرون بينهم كراساتهم «التكفيرية» التي كانت غير مطبوعة، وكانت تكتب غالبًا بخط اليد، وتحركنا مبكرًا بوعي ورغبة أكيدة في إنقاذ من يمكن إنقاذه من براثن أفكارهم التكفيرية.

وأذكر أن أبرز أفراد مجموعتنا الذين تصدوا لهذه الأفكار التكفيرية وكان له دور فعّال في هذا الأمر الأخ عصام حشيش (هو الآن أستاذ في كلية الهندسة بجامعة القاهرة)، والذي كان له اهتمام خاص بقضية التكفير وبتعقب أفكارها ومقولاتها، فكان يكتب - مستعينًا ببعض العلماء - للرد على هذه الأفكار، واعتبرناه - وقتها - المسئول عن هذا الأمر فأنجز للجماعة مجموعة كراسات للرد على تيار التكفير وأفكاره... وإن كنت لا أذكر أنه قد حدثت بيننا وبينهم أي صدامات في الجامعة فقد كانوا يعملون بشكل سري.

نحن والفنية العسكرية

في أبريل من عام ١٩٧٤ فوجئنا بأول عمل إسلامي مسلح في جيلنا، وهو محاولة بعض الشباب الإسلامي الهجوم المسلح على الكلية الفنية العسكرية والاستيلاء

على أسلحتها ومن ثَمَّ التوجه للسيطرة على مقر الاتحاد الاشتراكي والقبض على الرئيس السادات وأركان حكمه المجتمعين وقتها وإعلان أول انقلاب إسلامي يذاع بيانه الأول من مبنى الإذاعة والتليفزيون الكائن على بعد خطوات من مقر الاتحاد الاشتراكي.

كان قائد التنظيم وعقله المدبر صالح سرية وهو فلسطيني، كان يعمل موظفًا بالجامعة العربية بالقاهرة وكانت له نشاطات إسلامية في بلده فلسطين ثم العراق قبل أن يستقر في مصر... وكان معه في القيادة عدد من الشباب الإسلامي في جامعة الإسكندرية وفي الكلية الفنية العسكرية من أشهرهم طلال الأنصاري وكارم الأناضولي.

وحين وقعت المحاولة التي كان محكومًا عليها بالفشل وأعلن عنها في الصحف وجدنا أن بقائمة المتهمين عضوين في تنظيم الفنية العسكرية يعملان معنا في العمل العام بكلية طب قصر العيني، وهما مصطفى يسري وأسامة خليفة، ولم نكن نعرف أنهما منضمان لهذا التنظيم، إذ لم يخبرا أحدًا منا، ولم يكن هناك ما يدل – من سلوكهما – على أنهما بصدد القيام بعمل عسكري.

وباعتباري رئيسًا لاتحاد الطلاب فقد حضرت جميع جلسات القضية مدافعًا عن الطلبة المتهمين باعتباري رئيسًا لاتحاد الكلية التي يدرسان بها، كما وكّل اتحاد الطلاب المحامي الأستاذ الدكتور عبد الله رشوان للدفاع عنهما... وقد حكم عليهما في القضية بالسجن بعد فشل العملية.

في ذلك الوقت كانت فكرة استخدام العنف في التغيير مقبولة عندنا أو على الأقل لا تجد منا رفضًا صريحًا لها... فالمسألة لم تكن محسومة لدينا كما هي الآن... وكان أقصى خلافنا مع من تبنوا العنف منهجًا للتغيير أنهم يتعجلون بطرح أفكارهم في غير أوانها... وكان خلافنا حول التوقيت فقط والملاءمة لأننا كنا نعتبر أننا – في هذا الوقت – لا نملك القدرة ولا نرى الوقت مناسبًا... ولم يكن رفضنا مبدئيًا... فالعنف كان مقبولاً والاختلاف حول توقيته وجدواه فحسب... لقد كانت أفكارنا – في هذا الوقت– مزيجًا غريبا من السلفية والجهادية وبعض من الإخوان المسلمين، ولذلك كانت مسألة استخدام العنف في التغيير مرفوضة من المبدأ.

لقد كان الأخوان: مصطفى يسري وأسامة خليفة يدعوان لمبدأ العنف من أجل التغيير ولكنهما لم يكونا يدعوان إلى تنظيم معين أو للمشاركة في عملية بعينها... لهذا لم نكن نعلم عنهما أنهما في تنظيم أصلًا، ومن ثَمَّ فقد فوجئنا بحادثة اقتحام الكلية الفنية العسكرية.

وما أعلمه يقينًا أنه لم تكن هناك أي صلة بين هذين الطالبين - وقتها - وبين الإخوان المسلمين لا من قريب أو بعيد. ولم يذكر أحد منهما ولا من بقية المتهمين أي شيء يؤكد وجود علاقة بين الإخوان وبين تنظيم الفنية العسكرية.

وأنا أكتب هذه الشهادة نشرت شهادة طلال الأنصاري الوحيد الذي خُفف عنه الحكم بالإعدام من بين ثلاثة هم صالح سرية (قائد التنظيم) وكارم الأناضولي، وقد نشرتها مجلة روز اليوسف المعادية للإخوان والتيار الإسلامي عمومًا! وقد لاحظت أن طلال يكرر في هذه الشهادة الحديث عن علاقته بالإخوان بما يوحي بصلة الإخوان بالتنظيم أو وقوفهم وراء محاولته الانقلابية، وهو يدلس في هذه الشهادة حين يدّعي وجود صلة من هذا النوع بالإخوان؛ فالحاصل أن الإخوان كانوا آنذاك محط احترام الشباب وكان من الفخر لأبناء جيلنا أن يجلس أحد منا مع أحد الإخوان الخارجين من المعتقلات حديثًا، ولا مانع أن يكون طلال قد اتصل بهم كما اتصل بهم كل الشباب الإسلامي من أبناء جيلنا دون أن يكون ذلك دليلًا على صلة تنظيمية.

والدليل على أن ما ذكره طلال في شهادته محض افتراء وأنه لم يحدث، أن أحدًا من المتهمين الآخرين لم يذكر الإخوان في أقواله من قريب أو بعيد، كما لم يتم التحقيق مع أي من أفراد جماعة الإخوان أثناء التحقيق في القضية.

كما أن حادثة الفنية العسكرية وقعت في العام نفسه الذي بدأ فيه السادات يفرج عن الإخوان ويخرجهم من المعتقلات. فكيف يعقل أن الإخوان يفكرون أو يقدرون على القيام بتنظيم انقلابي بهذا الشكل على السادات الذي أخرجهم من سنوات السجن والتعذيب؟!

ولا يجب عزل شهادة طلال في هذا الموضوع عن طبيعته الشخصية، فقد كان طلال الوحيد من المجموعة التي قُبض عليها الذي انهار واعترف بكل شيء من

البداية إلى النهاية وأفشى أسرار زملائه... ومن ثَمَّ فلا أستبعد أن ما يقوله عن علاقته بالإخوان هو من خياله أو تأليفه.

جماعة واحدة ومراجع إسلامية مختلفة

حين بدأنا العمل الإسلامي في الجامعة كنا مجموعة لا يجمعها فعليًّا إلا الهمّ والرغبة الحقيقية في العمل لنصرة الإسلام، دون أن تكون لدينا مرجعية فكرية وشرعية تجمعنا.

كنا نأخذ وننهل من مراجع فكرية وشرعية مختلفة بل متناقضة، كنا قد سمعنا وقرأنا للشيوخ محمد الغزالي ومحمد أبو زهرة وسيد سابق ويوسف القرضاوي... وكذلك الأساتذة عيسى عبده والبهي الخولي وكمال أبو المجد... وغير هؤلاء من مدرسة الاعتدال والوسطية... كما انفتحنا مبكرًا أيضًا على نقيضها وقرأنا الكتابات الثورية للشهيد سيد قطب والأستاذ أبو الأعلى المودودي... والتي طالما ألهبت عواطفنا ومشاعرنا وغذتنا بروح الثورة والتمرد وحركت همنا للعمل.

كما كنا نحضر دروس شيوخ الجمعية الشرعية القريبة في بعض أفكارها من الإخوان وإن غلبت العمل الخيري والدعوي وابتعدت عن العمل السياسي، كما كنا نحضر لشيوخ جماعة أنصار السنة التي تقترب إلى حد كبير من الفكر الوهابي... وكان مؤسسها الشيخ حامد الفقي أهم من قدّم رموز السلفية الوهابية ونقلها لمصر.

وقد تأثرنا كثيرًا بالتيار السلفي في مرحلة مبكرة من تكويننا الإسلامي، وأظن أن السلفية الوهابية أقحمت على المشروع الإسلامي في مصر إقحامًا... في هذا الوقت كانت الكتب الإسلامية تأتينا من السعودية بالمئات بل الآلاف وكانت كلها هدايا لا تكلفنا شيئًا... كانت دائمًا «تُهدى ولا تباع» وكنا نوزع الكثير منها على الطلاب دون أن نعلم ما فيها من مشكلات فكرية ومنهجية... وكثيرًا ما أعدنا طباعة بعضها في سلسلة صوت الحق التي كنا نصدرها.

كما مهد لانتشار الوهابية بيننا رحلات العمرة التي كنا ننظمها من خلال اتحاد

الطلاب طوال الصيف، وكانت أول مرة اعتمرت فيها عام ١٩٧٤ وكلفتني رحلة العمرة خمسة وعشرين جنيهًا فقط، وأذكر أنني زرت السعودية بصفتي ممثلًا للجماعة الإسلامية في مصر، وكان العلماء هناك يرحبون بنا كثيرًا ويحسنون استقبالنا ويعتبروننا امتدادًا لهم هنا في مصر.

كانت رحلات العمرة تتم في أفواج كبيرة وصل عددها الإجمالي خمسة عشر ألف طالب وطالبة، فكانت إحدى روافد نقل الفكر الوهابي المتشدد، فقد كان بعض الطلاب يبقى هناك متخلفًا عن القدوم مع الرحلة ويظل حتى موعد الحج، أو على الأقل كان يلتقي بعلماء السعودية، فيعود من الرحلة حاجًّا معتمرًا وشيخًا سلفيًّا وهابيًّا.

وعلى أيدي هؤلاء انتشرت الاختلافات البسيطة في السنن وفي الأمور الفقهية، وكانت المعارك تندلع بينهم بسبب هذه الاختلافات غير المجدية، وكذلك بينهم وبين مشايخ الأزهر أو عامة الناس.

لقد خاض جيلنا - خاصة ممن تأثروا بالفكر الوهابي - معارك طاحنة حول العلاقة بين الرجل والمرأة وضرورة الفصل بينهما بدءًا بمدرجات الدراسة في الجامعة وحتى الفصل بين البنين والبنات في المدارس الابتدائية وما قبلها، بل كان هناك أفكار حول ضرورة الفصل داخل المستشفيات؛ بحيث يكون هناك مستشفى خاص بالرجال يديره الرجال، وآخر للنساء تديره النساء! ومن الأمور الغريبة التي كانت تناقش آنذاك قضية جواز رؤية خال أو عم المرأة لوجهها وكفَّيها أم حرمته!

وقد انطبع هذا التشتت والتناقض والتطرف على أفكارنا وتصوراتنا، وساعد على ذلك أننا كنا مجموعة شباب إسلامي صغير السن بلا شيوخ بعينهم يرجع إليهم أو مدرسة محددة ينهل منها... وكنا بسطاء أنقياء على الفطرة نريد الخير للجميع ونريد إعلاء كلمة الله لكن وعينا كان ساذجًا بسيطًا مغرقًا في البساطة... الحق عندنا واحد لا يتعدد، والدولة أحادية الرأي والتفكير، حتى زي المرأة هو زي واحد لا يختلف شكله فكان الحجاب أشبه بزي موحد من لون وشكل واحد تم توزيعه على كل النساء ولا يجب أن تفكر إحداهن في مخالفته أو تصور تغييره!

كنا- مثلًا- نؤمن بجواز استخدام العنف بل وجوبه في بعض الأحيان من أجل نشر دعوتنا وإقامة فكرتنا، وكان العنف بالنسبة إلينا مبررًا بل شرعيًّا، وكان الخلاف بيننا في توقيته ومدى استكمال عدته فحسب. كانت الفكرة المسيطرة على مجموعتنا نحن ألا نستخدم القوة الآن، وإنما نُعدُّ أنفسنا لاستخدامها حين تقوى شوكتنا ونصبح قادرين على القضاء على هذا النظام الممسك بالحكم. ولكن الفرق بيننا وبين من مارسوا العنف وأطلقوا على أنفسهم اسم «جماعة الجهاد» أنهم تعجلوا الأمور، ونفذوا ما اعتقدوه بسرعة ودون حسابات دقيقة!!

وقد ظلت هذه الفكرة مسيطرة علينا حتى أواخر السبعينيات، حتى بعد دخولنا جماعة الإخوان المسلمين، إلى أن بدأنا نراجعها تدريجيًّا، وكان للأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله - الدور الرئيسي في حسم مسألة العنف وتأكيد التوجه السلمي ليس لدينا فقط - نحن أبناء الجماعة الإسلامية التي قررت الانضواء تحت لواء الإخوان - بل ولدى كثير من الإخوان المسلمين أيضًا من أجيال سابقة علينا خاصة أبناء تنظيم ١٩٦٥ الذي عرف بتنظيم سيد قطب (وهو ما سنشير إليه لاحقًا).

وأعتقد أن هذا التوجه الاستراتيجي الجديد الذي خطه أستاذنا التلمساني هو الذي مكّن للإخوان في المجتمع المصري وقضى على بذور الفكر الاستئصالي الذي كان يمكن أن ينمو ويترعرع بين بعض الإخوان... كان - رحمه الله - صاحب كل المبادرات التي خطت للإخوان طريقًا داخل المجتمع بدءًا من دخول البرلمان فالنقابات فكل تفاصيل المجتمع المصري الذي استقرت نحوه بفضل التلمساني للرؤية الإصلاحية المعتدلة السلمية التي تقول إنه مجتمع مسلم ربما أصابه بعض الخلل والعطب، لكن الواجب علينا هو إصلاحه وليس استئصاله.

من المشاكل التي كنا نعانيها الضيق بالمختلفين معنا بل ربما الضيق بمبدأ الخلاف نفسه خاصة إذا كان خلافًا في الدين أو عليه... وهو ما غرس داخلنا بذور الإرهاب الفكري لكل من كان يختلف معنا... لقد كان ضيق الأفق وعدم القبول بالاختلاف أو

التسامح مع المختلفين يجعلنا نمارس إرهابًا فكريًّا ليس بحق خصومنا الإيديولوچيين فحسب؛ بل بحق أساتذتنا ومشايخنا الذين علّمونا وأخذوا بأيدينا حتى لو كانوا بوزن أستاذنا فضيلة الشيخ العلامة محمد أبو زهرة - رحمه الله - الذي خشي أن يفصح ببعض اجتهاداته ومات دون أن يجهر بها واكتفى أن أسر بها للمقربين منه فقط!

وكنا كجماعة إسلامية ناشئة بلا تراث ولا تقليد سياسي قصار النظر في مسألة الدولة ومنطقها وفلسفتها... وكنا نستحضر في أذهاننا تجارب بدائية بسيطة ترجع إلى ما قبل نشأة الدولة الحديثة، إقامة الدولة في نظرنا كان يعني عودة الخلافة الإسلامية، وعودتها تتم من منطلق عقائدي بحت وليس من منطلق سياسي، وتخضع لحسابات عقائدية وأخلاقية وليست لسنن وضوابط واقعية، وكانت دولتنا «الحلم» دولة الشريعة التي تقيم الحدود وتجري العقاب دون تردد أو نظر لأي خلاف أو مقاربة فقهية معتبرة.

وكانت مؤسسات الدولة في نظرنا تمثل خروجًا عن روح الإسلام ويجب أن تزال ويقام بدلًا منها نموذج إسلامي. وكانت السيطرة على الدولة تقوم على تفكير انقلابي بسيط ساذج، وهو ما تم بالفعل، حين قام به بعض الشباب المخلصين الطيبين من التنظيم الذي عرف باسم «تنظيم الفنية العسكرية»، فقد تدربوا على بعض الأسلحة الخفيفة وتجمعوا للاستيلاء على الحكم بأن يتوجه بعضهم للسيطرة على مكان إقامة الرئيس السادات والبعض الآخر على مبنى الإذاعة والتليفزيون ليعلنوا منه إقامة الدولة، ثم يقوموا بتطهير المجتمع من الرجس السائد فيه!!

كان هذا تفكير مجموعة إسلامية من جيلنا لإقامة دولة جديدة في بلد كمصر من أقدم بلاد العالم وأكثرها مركزية! وبالطبع كان لا بد لهذا الانقلاب الساذج من الفشل الذي دفع ثمنه الضحايا من الجنود البسطاء الذين لا ذنب لهم... ورغم ذلك كنا ننظر لهذه العملية التي قام بها زملاء من جيلنا على أنها تجربة حقيقية لإقامة الدولة ولكنها فشلت ولم توفق، فلم نرفضها في ذلك الوقت، ولم نكن ننظر إليها على أنها تجربة ساذجة لن تجدي نفعًا!

وبسبب الروح السلفية المحافِظة التي غلبت علينا فقد تبنينا موقفًا متشددًا في كل ما يخص المرأة، وانعكس ذلك على تعاملنا مع الفتيات، فكنا نفصل بين الطلبة والطالبات في المدرجات، معتبرين الفصل بينهما من الإنجازات التي حققناها، وكان مبدأنا في التعامل مع الفتيات هو الفصل الحاد حتى ولو لم يقم على أساس شرعي، ومن ثَمَّ فقد جعلنا الاتصال بين الطلبة والطالبات في الضرورة القصوى فقط.

أما دعوتنا للطالبات فكانت تأتي ضمن الدعوة العامة للطلاب من الجنسين دون أن نخص الطالبات بخطاب معين، أو يكون لنا اتصال معهن، فقد كان ذلك ممنوعًا، بدأت بعض الطالبات التجاوب مع خطابنا من حيث السلوك والالتزام بزيّ الجلباب والخمار المسدل، الذي لا يُظهر منها شيئًا سوى الوجه والكفين، ثم أصبحنا أكثر تطرفًا بالدعوة لارتداء النقاب وألا يُظهر منها شيئًا مطلقًا!! وانتشر النقاب بشكل كبير منذ بداية ١٩٧٥ بما استفز الرئيس السادات فأطلق عليه اسم «الخيمة»!

كان تصورنا أن الحجاب والنقاب والجلباب بهذه الأشكال المحددة هي فقط التي يجيزها الإسلام وأي زيّ دونه فهو مخالف! وكنا نشجع الفتيات على الحجاب وكان نشره من الأنشطة المهمة التي برعنا فيها، وكنا نبيع الزيّ للطالبات بستة جنيهات ثم ارتفع إلى تسعة جنيهات، وكان يباع باسم الجماعة الإسلامية أو اتحاد الطلاب.

وكان هذا جزءًا من عمل الاتحاد مثلما كنا نقوم أيضًا بطباعة المذكرات العلمية للطلاب لمساعدتهم على المذاكرة، وإن لم يكن الاهتمام بالتفوق العلمي من اهتمامات معظم أبناء الجماعة بسبب انشغالهم بالنشاط، وعدم حثنا كقيادات حركية على الانتباه له.

كان نشاط الطالبات تابعًا لنشاطنا في الجماعة الإسلامية، ولم يكن لهن كيان خاص بهن، ولذلك - ربما - لم تظهر قيادات نسائية في الحركة الطلابية الإسلامية، إلا ما كان من التفاف الطالبات حول أستاذتنا الدكتورة زهيرة عابدين زوجة أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم أبو الفضل، فكن ينظرن إليها كأم تتوجه إليهن بالنصح... أما مصادر التوجيه الفكري والحركي فكانت مشتركة لنا جميعًا وليس هناك تمييز بين الطلبة والطالبات.

ورغم ذلك كان لسيدة مثل الحاجة زينب الغزالي دور كبير في ذلك الوقت بين الطالبات، ولكن دورها كان محصورًا فيها كداعية وليس كقائدة تنظيم، كانت الطالبات يذهبن إليها ويستمعن لدروسها وكنّ يتأثرن بما لها من تاريخ جهادي كبير في صفوف الإخوان، وكانت رمزًا لهن في البذل والعطاء.

لقد حال المزاج السلفي السائد في ذلك الوقت دون أن تصير سيدة مثل الحاجة زينب الغزالي مصدر إلهام للحركة الطلابية، ومجرد كونها امرأة - رغم كبر سنّها - كان يجعل من دورها تابعًا لدور الرجل، وإن تطور ذلك الفكر بعد ذلك.

أما في علاقاتنا كشباب بالفتيات وبالمرأة عمومًا، فقد كنا نؤمن بأهمية التبكير في الزواج باعتباره سُنة مستحبة وعصمة لنا من الوقوع في الرذائل أو الانحراف الأخلاقي، لكننا لم نكن نعرف كيف نختار شريكة الحياة فقد كان هناك فصل تام بيننا وبين الأخوات... فكان الواحد منا إذا أراد الزواج رشح له الإخوة الأكبر منه أو ممن سبقوا بالزواج من تناسبه فيراها في مكان عام أو في محيط عائلي فإذا وقع التراضي مضى في الزواج.

وبين أقراني في الجماعة الإسلامية كنت ممن تأخروا في الزواج فقد سبقني الإخوة جميعًا تقريبًا في الزواج مثل الأخ إبراهيم الزعفراني في الإسكندرية والأخ سناء أبو زيد في القاهرة وكلاهما من نفس دفعتي... ولم يكن ذلك تأخرًا إذا ما قورنت بغير الإخوة في الجماعة الذين بكروا في الزواج تطبيقًا للسنة، فقد تزوجت وأنا طبيب في سنة الامتياز بعد التخرج. وتزوجت بنفس الطريقة التي تزوج بها الإخوة جميعًا. رشح لي بعض الإخوة إحدى الأخوات هي الدكتورة علياء وكانت ناشطة مع الأخوات في الدعوة وكانت من أسرة طيبة وكان أبوها - رحمه الله - ضابط شرطة معروفًا بالاستقامة والنزاهة. فحدث القبول فتزوجنا في أبسط صيغة ممكنة للزواج وبأقل التكاليف.

وكانت هذه من فضائل العمل الإسلامي في هذه الفترة، كانت هناك بساطة في الحياة وحرص على الالتزام بالشرع وأوامره دون التورط في كماليات الحياة ورفاهيتها، وكانت زوجتي - أكرمها الله - من هذا الصنف الذي يعلو على الشكليات والرفاهيات

لحساب الالتزام بالدين والجهاد من أجله فقبلت الزواج بي والحياة معي في ظروف صعبة وإمكانات متقشفة جدًّا، فقد كان دخلي محدودًا جدًّا ولا أزال شابًّا حديث التخرج، فسكنت معي في شقة صغيرة وبسيطة تفتقد الأثاث اللازم والضروريات التي تطلبها العروس، رغم أنها كانت من أسرة كبيرة وميسورة اجتماعيًّا.

وقد سعت - أكرمها الله - في ألا تكلفني ما لا أطيق أو ما يشغلني عن دعوتي وعملي مع الإخوان، فكانت تقتصد في النفقة وتستغني عن الكماليات فكانت ممن ساعدوني على أن أظل رافضًا لمبدأ التفرغ بأجر للعمل في الجماعة فقد ظلت لها مساهمة وافرة في نفقات الحياة من عملها بعدما أصبحت طبيبة نساء معروفة، وظلت ترفض أن يدخل بيتنا قرش واحد من غير كسبنا، حتى في أحلك الظروف. فكانت - أثناء الاعتقالات التي تعرضت لها - ترفض أي شيء يرسله الإخوة وإن كان هدية حتى لا تشعر أبناءنا بالحاجة... وكثيرًا ما تشددت في المبالغة في ذلك حتى إنها رفضت ذات مرة خروف عيد أرسله المرشد العام الأستاذ مصطفى مشهور هدية للأسرة حين كنت أقضي مدة خمس سنوات في السجن العسكري... وهو ما أحرج الرجل - رحمه الله - وأحزنه.

لقد كانت زوجتي الدكتورة علياء خير سند لي في هذا الطريق. أسأل الله لها حسن الجزاء.

الاتصال بالإخوان مرة أخرى

في عام ١٩٧٤ بدأ خروج قيادات الإخوان المسلمين من السجون... وبدأ الحديث بيننا كقيادات للعمل الإسلامي في الجامعة يزداد حول الإخوان... وكان السؤال الذي يتردد بيننا: هل سيلحق الإخوان بنا أم سنلحق نحن بهم إذا أرادوا أن يعودوا لنشاطهم مرة أخرى، أم سيستمر كل منا مستقلًّا عن الآخر من دون علاقة تنظيمية بيننا؟ وإذا قبلنا بالارتباط بهم فهل سندخل في جماعتهم ويكونون هم قادتنا أم سيدخلون معنا ونكون قادة الحركة الجديدة باعتبارنا القادة الحقيقيين في ميدان العمل فيما هم أصحاب تاريخ فقط؟

وبدأنا نفكر في هذا الأمر جديًّا وكان معنا في هذا التفكير والحوار الأستاذ محمد حسين عيسى الداعية المعروف في مدينة الإسكندرية، ولـم يكن – أمد الله في عمره- مرتبطًا – وقتها- بالإخوان، ولكنه كان يأتي إلينا في الجامعة كداعية.

وكان يشارك في الحوار عدد من قيادات الجماعة الإسلامية وأذكر منهم الإخوة محمد إسماعيل وأسامة عبد العظيم (وهم من دعاة التيار السلفي الآن) والإخوة محمود غزلان وحامد الدفراوي وإبراهيم الزعفراني وخالد داود.

ومن المؤكد أيضًا أن الإخوان كانوا يتابعون حركتنا ولكن من بعيد؛ وكان دافعهم الإعجاب بهذه بالجماعة التي نشأت من رحم الغيب دون أب لها أو تنظيم يخط لها الطريق، وأذكر أن الدكتور محمد عبد المعطي الجزار (وهو أستاذ في الطاقة الذرية)، ذكر لي أنه حين خرج من السجن، وكان قد اعتُقل شابًّا وقضى فيه سنوات طويلة، كان يمر في الجامعة فيرى مظاهرات ومسيرات ضخمة ورايات إسلامية... فكان يقف من مكان بعيد يشاهدنا ونحن في المظاهرات والمسيرات نهتف ونهلل ونكبّر، وهو لا يصدق ما يشاهده وما يراه من شباب إسلامي يتفجر حماسة وثورة، وكنت كثيرًا ما ألاحظه وهو يراقب المشهد، ثم أتابعه وهو ينصرف ويلتف حول كلية الآداب حتى يصل إلى كلية العلوم التي عاد للعمل بها.

وقد حكى لي بعد ذلك أنه كان منبهرًا بما رآه، لأنه كان يتصور هو وإخوانه في السجن أنهم حين يخرجون من السجون لن يجدوا دينًا ولا إسلامًا ولا شبابًا بهذا الحماس ولا حتى امرأة محجبة!

أما أول اتصال مباشر بيننا وبين الإخوان بعد خروجهم من السجون فكان مع الأستاذ كمال السنانيري – رحمه الله، فوجئت به ذات يوم يرسل لي من يبلغني بطلبه اللقاء... وكان قد حدد محل أحذية في شارع قصر العيني مكانًا للقاء! كان الرجل حريصًا إلى أقصى حد على سرية هذا اللقاء... فاختار أن يكون بعيدًا عن بيته وبيتي... واختار هذا المحل، وكان صاحبه من الإخوان، ويبدو أنه كان يريد التمويه على لقائنا تحسبًا لوجود من يراقبنا فكان يأتي بالأحذية لأقيسها ويأتي للأستاذ كمال أيضًا بمثلها، ودار الحديث طيلة لقائنا ونحن على هذا الحال نقيس الأحذية!!

كان الأستاذ كمال يظن أنه مراقب من قبل الأمن، ولم يكن قد مر على خروجه من السجن الكثير، ولم يُرِدْ أن يكتشف الأمن ولا أي شخص كان تلك العلاقة بينه - وهو من الإخوان - وبين مسئول الحركة الطلابية آنذاك، لقد كان يخشى من أن أي ربط مبكر بين الجماعة التي تمثل خصمًا تاريخيًّا للنظام وبين الحركة الإسلامية الجديدة من شأنه أن يُعجِّل بضرب الحركة الإسلامية مجددًا. وقد كانت هذه الهواجس الأمنية مبررة في حق شخص مثله قضى عمره سجينًا بسبب انتمائه لجماعة الإخوان.

حين أتذكر لقاءنا الأول لا أتمالك نفسي من البكاء... فقد كان لقاء مؤثرًا وعاطفيًّا إلى أبعد الحدود، وكان كلامه وروحه وكل ما فيه جديدًا بالنسبة لي... كنت أمام رجل قضى من عمره عشرين عامًا في السجون ثم خرج وهو ما زال مشغولًا بقضية الإسلام والدعوة إلى الله! وكان يتفجر حماسًا في شرح فكرته والتأكيد على الاستمرار فيها واستكمال ما بدأته الجماعة... كان لكلامه وقع السحر... وكان بالنسبة لي قدوة عثرت عليها بعدما كدت أفتقدها... كان حضوره في وعيي كحضور هؤلاء الذين كنا نقرأ عنهم في السيرة النبوية، الذين عُذّبوا وأُوذوا وصبروا على البلاء في سبيل تبليغ دعوة الله.

كمال السنانيري... جهاد في الدعوة

والأستاذ كمال السنانيري - رحمه الله - كان نموذجًا فريدًا من الدعاة المخلصين لدعوتهم، تتلمذ على يد الإمام الشهيد حسن البنا، وكان من الرعيل الأول للدعوة الذين أسسوا لها وأخلصوا العمل والبذل، وحين وقع الصدام بين الإخوان والثورة كان في مقدمة من طالتهم حملة الاعتقالات والمحاكمات الظالمة التي تعرض لها الإخوان، فاعتُقل عام ١٩٥٤ وحكم عليه عام ١٩٥٥ بالسجن بالأشغال الشاقة المؤبدة ضمن ألف من رجالات الإخوان، وظل مسجونًا طيلة عشرين عامًا قضاها صابرًا محتسبًا ولم يخرج من سجنه إلا عام ١٩٧٤.

يحكي إخوانه ممن عاصروه في السجن أنه كان رجلًا كثير العبادة كثير الذكر، وكان من أكثر الإخوان زهدًا وتقشفًا، وهو كان زاهدًا عن قناعة ورغبة فكان يلزم

الزهد وهو قادر على الترف والدعة إذ كان معروفًا بانتمائه إلى عائلة موسرة غنية وكان ممن يسر الله لهم سبل الحياة قبل السجن... ولكنه كان على قناعة لم يغيرها بأن من واجب الداعية صاحب الرسالة أن يلزم الزهد حتى لو تيسرت له أسباب الرفاهية. فسنة الداعية في الحياة هي الزهد والصبر على فتن الحياة.

يروي بعض الإخوة أنه - رحمه الله - كان يرفض أن يأكل إلا من طعام السجن أو يلبس إلا ما يلبسه المساجين رغم أن الكثيرين كانوا يأكلون ويلبسون مما يدخله أهلهم إلى السجون من طعام وملابس خاصة بعد أن استقر الحال داخل السجون، وكانت إدارة السجن - كما هو معلوم- لا تقدم إلا الرديء والبائس من الطعام والملبس إيقاعًا للعنت والشدة على المساجين من الإخوان... فكان - رحمه الله - يرفض أن يُجلب إليه الطعام الشهي أو الملبس الناعم من خارج السجن، وقد كان الجميع يفعلون ذلك تخفيفًا من العنت والمشقة التي يعيشونها، وكان - رحمه الله - يردد القول بأنه لا يريد أن يدخل على فترة سجنه الترف والدعة حتى ينال أجرها على أحسن وجه وحتى يأمن تقلب النعمة وتحول العافية الذي قد يصيب الإنسان خاصة في مثل حالته وحالة إخوانه في السجون التي كان أصحابها يتفننون في صب العذاب والعنت على من يقع تحت أيديهم. وكان - رحمه الله - يشق على نفسه في هذا التقشف لكنه لم يكن يلزم غيره من إخوانه بهذا، وكان هذا من اعتداله وسعة أفقه.

كان الأستاذ كمال السنانيري صاحب شخصية فريدة وصاحب تاريخ من النضال والجهاد القادر على إلهاب مشاعرنا كشباب يطمح لحمل الرسالة والقيام بأمانة الدعوة، فقد أوذي في سبيل دعوته كما لم يؤذ غيره، فقد سجن شابًّا وعُذب وشردت أسرته حتى طلقت زوجته الشابة منه وتوفيت طفلته منها أثناء سجنه، فصبر على ما أوذي به.

وكانت قصة زواجه في السجن أسطورة في خيالنا كشباب، فقد كان سجينًا مع عدد من خيرة رجالات الإخوان وفيهم الشهيد الأستاذ سيد قطب الذي كان يقاسمه نفس الزنزانة، وفي أثناء زيارة عائلية للسجن رأته الأستاذة أمينة قطب شقيقة الشهيد سيد قطب وهي تزور شقيقها، وعلمت بقصة طلاقه من زوجته ووفاة طفلته، فطلبته من شقيقها للزواج!

كانت أمينة أديبة وشاعرة مرهفة الحس والمشاعر مثل كل آل قطب، وكانت أختها حميدة ممن حكم عليهم بالسجن في قضية تنظيم عام ١٩٦٥، وقد شعر الأستاذ كمال وقتها بالشفقة عليها من أن تتزوج به وهو سجين لا يعرف متى يخرج للحياة، لكنها أصرت ودافعت عن اختيارها له، وقوبل طلبها بترحيب من شقيقها الشهيد، وعقد قرانهما داخل أسوار السجن... وتأجل الزفاف حتى خروج الأستاذ كمال من السجن ضمن آخر دفعة من الإخوان خرجت من السجون عام ١٩٧٤ وحين بنى بها الأستاذ كمال كان قد جاوز عمره الخامسة والخمسين! ولم يمكث معها إلا سنوات قليلة حتى استشهد عام ١٩٨١ في السجن تحت سياط التعذيب - رحمه الله.

وكانت لها أبيات رقيقة جميلة في رثائه ما زلت أتذكرها تقول فيها في وداعه:

هل تـرانا نلتقـي أم أنهـا ... كانت اللقيا على أرض السـراب

فتولـت وتـولى ظلهـا ... واستحالت ذكريات من عـذاب

لقد كان الأستاذ كمال السنانيري بالنسبة لي رمزًا للدعاة والمجاهدين الذين يجب أن نتخذهم قدوة ومثلًا. وكان مما زاد تأثيره فيَّ وجعلني أجلّه وأحترمه أنني لم أشعر وهو يحدثني أنه جاء يفرض علينا سيطرته أو حتى وجهة نظره، رغم فارق السن بيننا وعمره الطويل في الجهاد والمحنة... كانت مثل هذه الروح هي التي جعلتنا نحب هؤلاء الناس حبًا عظيمًا خاصة بعدما التقيت بالأستاذ عمر التلمساني رحمه الله.

الفصل السادس

بين يدي الدخول في جماعة الإخوان

كان هذا لقاءنا الأول الذي ما زال يحضرني ويؤثر فيَّ إلى لحظة كتابة هذه الذكريات... ثم كان لقاؤنا الثاني في بيته... وبعد ذلك تعددت لقاءاتي بقيادات الإخوان التاريخية... التقيت الحاج عباس السيسي القيادي البارز في الإسكندرية... كان لقائي به طريفًا وأقرب للمغامرة التي تستحضر فيها روح الجهاد والعمل السري... فقد التقى بي في مكان مظلم بعد أن انتقلت من مكان إلى مكان حتى انتهينا إلى بيت أحد الإخوان في مدينة رشيد قريبًا من الإسكندرية، وحين دخل هذا الأخ ليقدم لنا الشاي وسمع صوتي وأنا أكلم الحاج عباس السيسي، كانت المفاجأة أنه يعرفني وأعرفه، وكان هو صلاح الجعفراوي، الداعية والناشط الإسلامي في ألمانيا الآن، ودار بيني وبين الحاج عباس نقاش طويل حول مستقبل العمل الإسلامي، وكان يسعى إلى إقناعي بضرورة انضمام الجماعة الإسلامية إلى الإخوان.

ثم كانت لقاءاتي بشيخي ومعلمي الأستاذ عمر التلمساني، وقد كان أكثر الذين أثروا فيَّ وعلموني، وكانوا سببًا في اقتناعي بدخول جماعة الإخوان المسلمين والبيعة لهم؛ وهي البيعة التي تلتها بيعة معظم قادة الجماعة الإسلامية في جامعة القاهرة وجامعات مصر، كما تعددت اللقاءات معه ومع غيره من الإخوان وبالذات الحاج مصطفى مشهور والحاج أحمد حسنين والدكتور أحمد الملط رحمة الله على الجميع.

وقد ظللنا نلتقي لمدة عام تقريبًا بعد لقائي بالأستاذ كمال السنانيري في حوار مستمر للإجابة عن سؤالنا المحوري: يا ترى من الذي سيستوعب الآخر؛ نحن الشباب أم هم الشيوخ؟

كانت هذه القضية مثار نقاشات طويلة بيننا كقيادة في الجماعة الإسلامية الناشئة، وكان الحوار يدور بين إعجاب بتاريخ هؤلاء الناس واحترام لجهادهم وبذلهم وتضحياتهم وبين بعض مآخذنا عليهم، بحكم تكويننا السلفي المتشدد، تتعلق بما رأيناه تحللًا من الالتزام بالسنن الظاهرة كاللحية والهدي الظاهر وبعض الأمور الأخرى التي - رغم بساطتها - كانت تسيطر على رؤيتنا في تقييم الأشخاص وتقديرهم.

لقد كانت قيادات الإخوان من بين كل الاتجاهات الإسلامية هي القادرة على أن تملأ أعيننا وقتها، كان الإخوان المسلمون بالنسبة لنا أسطورة الصمود والصبر في مواجهة الظلم والجاهلية... وكانوا نماذج استثنائية للتمسك بالفكرة وتحمل آلام السجن والاعتقال والإساءة إليهم، وأحسب أننا شاركنا في هذه الإساءة إليهم- أيضًا- حين اتهمناهم بعدم التزامهم باللحية وتلك الأمور الظاهرة التي كنا نتمسك بها نحن الشباب قليلي التجربة.

وأشهد أن هؤلاء الذين قضوا زهرة العمر في السجون وضاع منهم الشباب كانوا أكثر منا طاقة وحيوية وكانت لديهم أرواح وثّابة لا تفتر عن العمل في سبيل فكرتها.

كانوا حريصين على استيعابنا لدرجة أنهم كانوا يتحاملون على أنفسهم ولا يواجهوننا بما يؤذينا أو يخالفنا رغبة في أن يوصلوا إلينا أفكارهم... وحين علموا أن أمر اللحية والالتزام بالهدي الظاهر سوف يريحنا أطلقوا لحاهم... وقليل منهم من عارضنا في هذه القضايا الفرعية وفي مقدمتهم الأستاذ عمر التلمساني - رحمة الله عليه - الذي كان يصر على التزام فضيلتي الصراحة والشجاعة في مواجهة المختلفين معه حتى في الأمور الثانوية... وكان يناقشنا - مثلًا - في قضية اللحية وكيف أنها ليست فرضًا ويصر على ذلك ...وقد استفدت منه كثيرًا في هذا الأمر.

كان الأستاذ عمر التلمساني يتميز بسعة الصدر والقدرة على الحوار والنقاش، وكنا معه نسمع لأول مرة من يقول لنا: لا تأخذوا كلامي أمرًا مسلّمًا به، ولكن اقتنعوا أولًا! لقد كان هذا كلامًا جديدًا على أذهاننا، فاحترمنا فيه تلك العقلية المتفتحة، وحين اختلفنا معه في مسألة سماع الموسيقى وأتينا له بالأدلة على حرمتها ناقشنا بهدوء وطلب منا أن نسمع كلامه إلى آخره، وقال إنه يقصد السماع المباح... لقد فتح الرجل أعيننا على أن القضايا الفقهية التي كنا نظنها نهائية مطلقة فيها نظر، فكان - رحمه الله - يواجهنا في مثل هذه القضايا بشجاعة، دون خشية من نفورنا من الإخوان.

لقد كان لنا حضور كبير وانتشار هائل بين الطلاب والشباب في ذلك الوقت، وكنا نتميز بإنكار الذات والنقاء والإيثار والتجرد، وتلك المعاني الأخلاقية كانت بارزة في كل أفراد الجماعة الإسلامية بشكل واضح جدًّا، حتى إنه لم يَرِدْ على ذهني استنكار أن نترك القيادة للإخوان فيكونون هم القادة للحركة الإسلامية ونكون نحن الأتباع، وأحسب أن هذا كان شعور معظم إخواني أيضًا في الجماعة.

حين بدأنا لقاءاتنا مع الإخوان وازداد احتكاكنا بهم، من خلال دعوتهم للمحاضرات والندوات، أسرتنا شخصيات قادتهم فكان لها الأثر الأكبر في قرار الانضمام لجماعتهم فيما بعد، كانوا متواضعين منكرين ذاتهم أشد الإنكار، حتى إن رجلًا كبيرًا في السن مثل الأستاذ مصطفى مشهور - رحمه الله - كان يرفض ركوب التاكسي حتى لا يكلفنا ما لا نطيق ويصر على أن يركب وراء أحدنا الموتوسيكل حين كنا نستضيفه في محاضرة أو ندوة.

لقد كان الحاج مصطفى مشهور رجلًا ودودًا عطوفًا، يألفه الآخرون بسرعة رغم ما كان يشاع عنه من أنه رجل حديدي يحب السيطرة، كان منظمًا، لم يكن أبدًا يتأخر عن موعد، وكنت أذهب إليه في أي وقت من ليل أو نهار، فجرًا أو بعد منتصف الليل، ولا يتضجر من ذلك أبدًا... وكان من الذين عمقوا لدينا معنى التضحية من أجل الدعوة، وكانت له مقولته المشهورة لمن كان يقدم منا على الزواج: «قل لزوجتك إن لي زوجة أخرى ... هي الدعوة».

لقد ظُلم الرجل كثيرًا... وكان دوره الدعوي يخفي وراءه شخصًا بالغ الرقة والطيبة. وقد قيل عنه إنه المسئول الحقيقي للجماعة وإن الأستاذ عمر التلمساني كان مجرد واجهة، ولم يكن هذا صحيحًا على وجه الإطلاق، فكثيرًا ما كنت أرى الأستاذ عمر يلزمه ببعض الأمور فكان ينفذها في الحال ملتزمًا بما يقوله المرشد العام أو يفوضه فيه.

وهذا الفهم الذي تبادر إلى أذهان البعض عنه هو بسبب أن الأستاذ مصطفى - رحمه الله - كان ذا شخصية حركية تنفيذية تنظيمية، لا يحب الظهور في الأعمال العامة كثيرًا ولا يجيدها.

كذلك تأثرت بالأستاذ محمد العدوي وما لمسته فيه من إخلاص، وقد كان لبعض توجيهاته تأثير بالغ في حياتي... هو الذي قال لي ذات مرة: «إن العمل لوجه الله لا يجوز أن يختلط بالمصالح الشخصية سواء المادية أو الأدبية»... وحين رفضت الجامعة تعييني بعد التخرج قابلني وسألني عن أحوالي، ولما أخبرته أنني أعمل بالطب الرياضي رحب بذلك ثم قال لي: «إياك أن يعرض عليك إخوانك التفرغ للجماعة وتترك عملك مقابل مرتب فتقبل بذلك».

فقلت له: إن هذا ليس خطأ أو حرامًا.

فرد عليَّ قائلاً: «إن جمعك بين عملك الوظيفي وبين عملك الدعوي أفضل من ذلك عشرات المرات، وإن لهذا فوائد لا حصر لها... وهو الذي سيجعلك تقول رأيك لوجه الله دون تردد»... وقد كان لنصيحته هذه أثر وفضل سأظل أذكره له إلى أن ألقى الله.

أذكر أيضًا أستاذنا الحاج أحمد حسنين الذي قضى عمره في الدعوة ولم يستفد أدنى استفادة شخصية كما استفاد البعض... ورغم أن بعض تلك الاستفادات مشروع وبعلم الجماعة، لكنه تورع عن ذلك، وظل حتى وفاته يسكن في مسكنه الريفي بقليوب ويرفض حتى هذه اللحظة المجيء إلى القاهرة رغم أننا عرضنا عليه أكثر من مرة سكنًا خاصًّا بالعاصمة.

لقد كان قادة الإخوان نوعًا مختلفًا تمامًا عما كنا نراه من الشيوخ الرسميين الذين كنا إذا دعوناهم لمخيماتنا اشترطوا علينا أن نُعدّ لهم ركوبة خاصة واستضافة خاصة، أما الإخوان فكان أحدهم لا يجد مانعًا من أن يأكل مما نأكل ويبيت معنا في المخيم أكثر من ليلة، وكنا إذا دعونا الشباب للطابور الرياضي صباحًا، كنا نجدهم أول الحاضرين وقوفًا في الطابور مع الشباب، فقد تربوا على تلك السلوكيات، فكانوا يمارسونها بشكل تلقائي دون تكلف.

وأذكر في هذا الصدد أن الحاج إبراهيم عزت - رحمه الله - وكان من شيوخ جماعة التبليغ كان يأتي للجامعة بالموتوسيكل الذي كان يملكه.

وأذكر كذلك أن رجلًا كبيرًا مثل الحاج جودة كان يبيت معنا في أحد المخيمات، وحين أطلقنا صافرة جمع الطابور الرياضي، وجدته جاء مهرولًا لحضور الطابور، مع أنه قد جاوز الخمسين من عمره، فطلبت منه أن يستريح وأخبرته أن الطابور ليس له وإنما للشباب فرفض تمامًا قائلاً: إنه ما دام موجودًا في المخيم فلا بد أن يسري عليه ما يسري على الجميع.

لقد كانت أعمار قادة الإخوان المتقدمة عنا عنصر ترجيح في مسألة الانضمام للإخوان، فقد كانوا في أواخر العقد الخامس والعقد السادس من أعمارهم تقريبًا، وكنا نحن في أوائل العقد الثالث.

وأهم ما حسم قضية العلاقة بالإخوان خبرتهم في العمل الإسلامي وجهادهم وتاريخهم وصبرهم على المحنة؛ إذ لم يكن أمام أي منصف أو مخلص متجرد إلا أن يُقدر هذا التاريخ لهؤلاء الناس... أما مسألة الاختلاف بيننا في بعض الأمور الفقهية الفرعية، فقد اقتنعنا تدريجيًّا أن هوة الخلاف سوف تضيق بمرور الوقت.

في الوقت الذي بدأ الاتصال بيننا وبين الإخوان والتباحث في شأن مستقبل علاقتنا معهم كان أبرز القيادات التي تتعامل معنا الأستاذ كمال السنانيري، الذي كان أعلى المسئولين في الإخوان الذين اتصلوا بنا، والحاج أحمد حسنين، ثم الأستاذ مصطفى مشهور، الذي تميز عن الجميع بقدراته في العمل العام وإلقاء المحاضرات والدروس وهو ما جعله في صدارة الصورة... وجميعهم من قادة النظام الخاص.

استقر أمرنا أخيرًا وبعد أخذٍ ورد على الالتحاق بصف الإخوان، وأن تكون قيادة الجماعة الإسلامية في أيديهم، وقد رجحنا إيجابياتهم على سلبياتهم من وجهة نظرنا آنذاك.

شهادة في حق عمر التلمساني

لقد كان للأستاذ عمر التلمساني تأثير كبير على جيلنا وعليَّ شخصيًّا خاصة في بداية الاتصال بالإخوان والنقاش بيننا حول الانضمام للجماعة، كان للأستاذ عمر أثر كبير علينا بشجاعته وصدقه فلم يكن يعرف المناورة أو الالتفاف في حديثه، بل كان واضحًا لا يراوغ حتى ولو أثار كلامه رفض الآخرين... سئل ذات مرة في ندوة استضفناه فيها في الجامعة عام ١٩٧٧ عن حكم الاستماع للموسيقى، وكانت الأجواء كلها أجواء تشدد وتحريم فإذا به لا يكتفي بأن يقول - مثلًا - إن حلالها حلال وحرامها حرام، خاصة أن جميع الحاضرين كانوا يرون حرمة الاستماع للغناء والموسيقى مطلقًا، وإنما قال بصراحة بعد أن بيّن الموقف الفقهي الذي يذهب إليه والقائل بالجواز: «وأنا أستمع للموسيقى، وكنت في الماضي أعزف على العود ولكن انشغالي بأمر الدعوة وما فيه حال البلاد هو الذي منعني من الاستمرار في الاستماع إلى الموسيقى».

لهذه الدرجة كان شفافًا نقيًّا ولم يعبأ برد الفعل الذي وصل حد التشهير إلى درجة أن بعض الإخوان عاتبه على قوله هذا خاصة بعد التعليقات الساخرة التي صدرت بأن مرشد الإخوان يستمع إلى الموسيقى.

أذكر له موقفًا آخر في إحدى السنوات التي كنا ننظم فيها صلاة العيد في ميدان عابدين بالقاهرة، فقد طلب مني لواء من مباحث أمن الدولة عدم وضع أي لافتات عليها شعارات الإخوان فرفضت ذلك بالطبع، فذهب يشكوني للأستاذ عمر في مكتب الجماعة بسوق التوفيقية، وحضر الأستاذ عمر النقاش بيننا فوجدني مُصرًّا على موقفي وأتحدث مع الضابط بغضب فاستأذن للخروج رافضًا أن يشهد هذا النقاش... ولما انتهى اللقاء عاد وحياني على موقفي وقال لي: إن المسئولية أحيانًا

تجعل الإنسان ضعيفًا خاصة في تلبية مطالب مثل التي يطلبها لواء أمن الدولة... لقد رفض الرجل أن يحضر فيضعف أمام الضغوط فخرج حتى لا يشهد اللقاء ويكون في حل مما سينتهي إليه.

ومن الأدب الجم للأستاذ عمر - رحمه الله - أننا كنا ذات مرة متوجهين لجامعة القاهرة لحضور محاضرة وكان معنا سكرتيره الأخ الأستاذ إبراهيم شرف ومعنا أيضًا فضيلة الداعية الشيخ إبراهيم عزت شيخ جماعة التبليغ والدعوة - رحم الله الجميع، وكان الاثنان يسيران خلفنا، فنادى الأستاذ عمر وقال: يا إبراهيم... فإذا بالشيخ إبراهيم عزت - وكان علمًا من أعلام الدعوة - يسرع إليه قائلاً: تحت أمرك يا أستاذ عمر.

فاعتذر الأستاذ عمر خجلًا وقال: وهل من المعقول أن أناديك هكذا وأقول يا إبراهيم؟! لقد كنت أقصد الأخ إبراهيم شرف (وكان سكرتيره وفي مقام ابنه).

أذكر أيضًا أن السيدة أمينة السعيد كانت بدأت سلسلة مقالات في مجلة «المصور» تهاجم الإخوان المسلمين، ودخلت ذات مرة على الأستاذ عمر في مكتبه بالتوفيقية فرأته - رحمه الله - ممسكًا بسماعة التليفون يحدثها قائلاً: أهلًا يا ست أمينة... كيف حالك؟ هل من الممكن أن أزورك وأشرب معك فنجانًا من الشاي؟!

ويبدو أنها وافقت على طلبه فقال: وهل يمكن أن آتي الآن أم أن في ذلك إزعاجًا لكِ؟

ويبدو أنها وافقت فأنهى المكالمة ليسرع بالذهاب إليها... فرآني واقفًا على وجهي الغضب فاستفسر مني فقلت له مستنكرًا: كيف تقابلها وتحدثها هكذا وهي تهاجم الإخوان بهذا الأسلوب السيئ؟ فرد مبتسمًا: إننا أصحاب دعوة ورسالة، ومن الأفضل أن نتحاور ونتناقش معها، فإن اقتنعت بوجهة نظرنا كان ذلك خيرًا، وإن لم يكن فلن نخسر شيئًا... وطلب مني أن أذهب معه لهذا اللقاء ولكنني اعتذرت.

وأذكر وقتها أن الأستاذة أمينة السعيد امتنعت عن الهجوم على الإخوان بعد لقائها به مباشرة.

ومما أذكره من مواقف للأستاذ عمر أن مجلس الشعب عقد عدة جلسات نقاش حول قانون الأسرة الذي تبنته السيدة چيهان السادات، وقد تلقى الأستاذ عمر وقتها

دعوة للحضور والمشاركة في تلك النقاشات... فحضر وحضرت معه بعضها ولاحظت كيف أنه استطاع التواصل مع جميع الاتجاهات والتيارات المختلفة داخل مجلس الشعب واستطاع أيضًا إقناعهم بضرورة احترام الشريعة الإسلامية، وقد شهدت الجميع يبادله الود والاحترام.

لقد كان الأستاذ عمر شخصية اجتماعية وليس حزبيًّا... ولم يكن يميز في تعاملاته بين الإخوان وبين غيرهم من خارج الإخوان... كما لم ينشغل رحمه الله - مثل آخرين - بما كان بين الإخوان وبين الخصوم الذين آذوهم وعذبوهم في السجون... لقد كان يحثنا دائمًا على النظر لمستقبل الدعوة مع أننا كنا متحفزين للانتقام منهم وكنا نستطيع ذلك، إلا أنه بذل وسعه لمنعنا من ذلك بل ودفعنا إلى عدم الانشغال أصلًا بهذه القضية، ولا أذكر طوال الفترة التي لازمته فيها أنه ذكر ما حدث له أو للإخوان في السجون من تعذيب وترويع، حتى لا يحفزنا على الانتقام والثورة... وأحسب أن ذلك يعود لشخصيته النقية المتسامحة ذات التكوين الصوفي الرباني.

لقد كان من الصعب أن تطفو مشاكل الستينيات على السطح في ظل وجود الأستاذ عمر على رأس الجماعة، أو أن يجعل من الإقصاء والإبعاد منهجًا في التعامل مع المختلفين مع الجماعة فكريًّا، فقد كان - رحمه الله - شخصية تجتمع عليها القلوب، حتى إنه أتى بالأستاذين صلاح شادي وفريد عبد الخالق المعروفين بالانفتاح وعيَّنهما في مكتب الإرشاد جنبًا إلى جنب مع المختلفين معهم من أبناء التنظيم الخاص مثل الأساتذة مصطفى مشهور وأحمد الملط وأحمد حسنين - رحمهم الله جميعًا - وأدار الأستاذ عمر مكتب الإرشاد بتنوعه وتعدد مشارب أعضائه واتجاهاتهم بحنكة واقتدار كبيرين. أما بالنسبة لما ردده البعض من أن الأستاذ عمر التلمساني كان واجهة طيبة للمجتمع وللرأي العام يدير من ورائها قادة النظام الخاص الجماعة ويتحكمون فيها وأن الأمر والنهي كان بأيديهم فهذا غير صحيح على الأقل فيما رأيته وعرفته، وقد كنت في منزلة قريبة من الرجل... فالإخوان كانوا قد تجاوزوا تمامًا موضوع النظام الخاص ولم تعد تعني كلمة التنظيم إلا تنظيم الجماعة المعروف والذي لا يوجد فيه خاص وعام... وكانت لديهم حساسية من كلمة النظام الخاص.

وأذكر أن الأستاذ عمر كان دائمًا ما يسأل: هل هناك أمر يحدث داخل الجماعة ولا أعرفه؟ وكنت أستغرب هذا السؤال ولم أكن أفهمه حتى علمت فيما بعد أنه كان يقصد بسؤاله إذا ما كان هناك شيء خاص أو سري يعده أصحاب التنظيم الخاص وهو لا يعلم عنه شيئًا؟ وقد قلت له ذات مرة إن هذا الأمر لا يرد حتى على أذهاننا نحن الشباب وإنه لم يحدثنا فيه أحد من الإخوان.

وكان - رحمه الله - لديه فضيلة الالتزام بموقف الجماعة حتى ولو كان مختلفًا مع رغبته وقناعته الخاصة... ولم يكن يفرض آراءه الخاصة على الجماعة؛ كتب ذات مرة في مجلة الدعوة فعبّر عن موقف سلبي من الأحزاب، ولم يعبر وقتها عن رأيه الشخصي بقدر ما عبر عن التزامه برأي الإمام المؤسس الأستاذ البنا - رحمه الله - الذي كان وليد ظروف خاصة في فترة الأربعينيات... لقد آثر الأستاذ عمر أن يكتم رأيه وأن يعلن المبدأ الذي التزمت به جماعة الإخوان وقتها... والذي ظلت تتبناه حتى نهاية السبعينيات حين لم تكن هناك أحزاب أصلًا تمارس دورها في الحياة السياسية.

بل إنه أصر على رأيه هذا مع أن الشيخ الغزالي - رحمه الله - كان يخالفه في هذا الرأي من منطلق الفكر والرؤية المستنيرة للإسلام التي كان يتميز بها الشيخ - رحمه الله - ومع هذا الاختلاف بينهما إلا أن الأستاذ عمر كان يحمل كل تقدير واحترام للشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق أيضًا - رحمهما الله - كعالمين جليلين لهما فضل على دعوة الإخوان.

وفي مرضه الأخير كان - رحمه الله - يرقد في مستشفى كليوباترا، وكنت عائدًا من الإسكندرية مع الأخ الأستاذ جابر رزق - رحمه الله - فاتصلنا بالأستاذ إبراهيم شرف سكرتير الأستاذ عمر وأخبرناه أننا سوف نمر على الأستاذ في المستشفى للاطمئنان عليه بمجرد وصولنا القاهرة، وحدث أن تأخرنا في الطريق لظروف ما، وما إن وصلنا حتى أخبرنا الأستاذ إبراهيم شرف أن فضيلته قد أصابه القلق علينا وأنه ظل يسأل عنا كل خمس دقائق تقريبًا خوفًا من أن يكون قد أصابنا مكروه في

السفر... حتى إذا دخلنا عليه تهلل وجهه وأسرع مرحبًا وقال لنا: «الحمد لله على سلامتكما»... ودعانا للجلوس.

ولم يكن ذلك مستغربًا من الأستاذ عمر التلمساني فقد كان أبرز تلاميذ مدرسة الأستاذ البنا في أخلاقه وسلوكه مع الإخوان ومع غيرهم.

المرشد السري!

مع نهاية حرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ بدأ الإخوان في الخروج من السجن، وكان قد سبقهم الأستاذ حسن الهضيبي الذي أُفرج عنه بسبب حالته الصحية. لم يكن في الجماعة خارج السجن إلا عدد قليل فلم يكن حول المرشد إلا عدد قليل يحيط به ويلزم صحبته وهم من يمثّلون هيئة مكتب الإرشاد من الإخوان الكبار مثل الدكتور أحمد الملط والحاج حسني عبد الباقي والشيخ مرزوق؛ وهو من قدامى الإخوان وكان يقطن حي حدائق حلوان جنوب القاهرة وكان يقال عنه إنه المرشد السري!

وسبب تسمية «المرشد السري» أن الأستاذ حسن الهضيبي كان إذا تغيب لظرف ما عن الحضور، كان يُنيب عنه الشيخ مرزوق في المسئولية عن إدارة الاجتماع. فلما توفي الأستاذ الهضيبي - رحمه الله - طلب الإخوان من الشيخ مرزوق - وكان ضريرًا - أن يتولى مسئولية المرشد حتى يتم اختيار مرشد جديد للإخوان، فرفض الرجل أن يكون المرشد، ولكن مع إصرارهم تولى تلك المهمة المؤقتة، على أن يكون القائم بأعمال المرشد وليس المرشد العام.

لم يكن قادة الإخوان الكبار وخاصة أعضاء المكتب يتصورون أن يظلوا هكذا دون مرشد للجماعة، وكان حديث البيعة حاضرًا في أذهانهم (من مات وليس في عنقه بيعة فقد مات ميتة الجاهلية) فكان لا بد لهم أن يبايعوا أحدًا مرشدًا عامًا للإخوان، ومن ثَمَّ فقد كانوا يأخذون البيعة للمرشد دون أن يكون هناك مرشد حقيقي للجماعة. وقد رفض بعض الإخوان - خاصة خارج مصر- أن يبايعوا لمرشد سري دون أن يعلموا شخصيته، وأذكر أن ممن رفضوا هذه البيعة داخل مصر الأخ الأستاذ مهدي عاكف

المرشد السابع للجماعة، فحين ذهب إليه أعضاء المكتب ليأخذوا منه البيعة وسألهم عن شخص المرشد وقالوا له إنه سر غير معروف رفض أن يبايع... وقد أخبرني بهذه الرواية الدكتور أحمد الملط - رحمه الله.

ومن هنا جاءت قضية المرشد السري التي استمرت حتى عام ١٩٧٥، ففي هذه الفترة اشتد الجدل في قضية المرشد وكان لا بد أن يظهر للناس من هو المرشد فاستقر رأي أعضاء المكتب على بيعة الأستاذ عمر التلمساني مرشدًا، باعتباره أكبر الإخوان سنًّا، فقد كان هو عضو مكتب الإرشاد الوحيد قبل اعتقالات ١٩٥٤ التي عصفت بالجماعة.

كان الإخوة الذين اختاروا الأستاذ عمر يمثلون مكتب الإرشاد المؤقت، فلم يكن أحد منهم عضوًا في مكتب الإرشاد الرسمي - قبل عام ١٩٥٤ - إلا الأستاذ عمر التلمساني، فلم يكن أمامهم إلا اختياره رغم الاختلاف في منهجية التفكير فقد كانوا من رجال التنظيم الخاص ولديهم اختلافات مع منهج الأستاذ عمر، ولم يكن قد أفرج عنه وقت تشكيل مكتب الإرشاد المؤقت، فلما خرج بعد ذلك بويع مرشدًا، وأعيد تشكيل المكتب ثانية.

لم أكن قد رأيت الشيخ مرزوق إلا مرة واحدة في بيته حتى شهدت جنازته بعد ذلك - رحمه الله.

بدء الدخول في الإخوان

استمر التواصل واللقاء مع قادة الإخوان الذين بدا أنهم اتفقوا على أن يكون الأستاذ كمال السنانيري هو حلقة الوصل بينهم وبين شباب الجماعة الإسلامية، وتم الاتفاق بيننا وبين الإخوان أن يبقى هذا الاتصال والتعاون ثم الانضمام سرًّا ولا يعلن عنه، وأن يكون الاتصال بينهم وبين القيادات منا فقط، ففي القاهرة كان الاتصال معي أنا والأخ سناء أبو زيد وفي الإسكندرية الأخ إبراهيم الزعفراني، وفي الوجه القبلي الأخ محيي الدين عيسى..

والسبب في هذه السرية هو سبب أمني بحت، لأن السادات - رحمه الله - كان يسمح لنا بالعمل داخل الجامعات وخارجها، وكانت لنا حرية حركة كبيرة، وكان قادة الإخوان وخاصة الأستاذ عمر يخشون من أن يتغير الوضع إذا علم النظام بأن هذا الكيان الضخم الهائل من شباب الحركة الإسلامية قد أصبح تحت قيادة الإخوان، وهو ما قد يعجل بالبطش بهم وبنا، ومن ثَمَّ فقد ظلت العلاقة في شكلها الظاهر علاقة الأستاذ العالم الذي يأتي لإلقاء المحاضرات والدروس فقط، وكنا نحن نحرص- تمويهًا - على إبراز أننا مختلفون فكريًّا وتنظيميًّا عن الإخوان، والعلاقة علاقة احترام لمن هم أكبر منا.

وكنا إذا أردنا أن نقدم شيوخ الإخوان وضعنا مسافة بيننا وبينهم، فنقول مثلًا في ندواتنا للحاضرين: نقدم لكم الداعية الإسلامي عمر التلمساني، ولا نقول أستاذنا ومرشدنا... إلخ.

وبدأت العلاقة تترسخ تدريجيًّا بين الجماعة والإخوان وتخرج من السر إلى العلن، وبدءًا من عام ١٩٨٠ بدأت ثقافة الإخوان تسود بين صفوف الشباب وبدأت التيارات الأخرى تضعف، وبدأنا نُظهر اسم الإخوان على مطبوعاتنا وإصداراتنا، وكان معظم الدعاة الذين يأتون في المخيمات من الإخوان، وكان المتابع المدقق لنا يشعر ويوقن أن الجماعة الإسلامية أصبحت من الإخوان المسلمين.

حين أخذنا - أنا وبعض قادة الجماعة قرار الانضمام للإخوان - كنا نتوقع أن الصف الثاني من بعض قيادات الجماعة الإسلامية سوف يعارض ما تم الاتفاق عليه بيننا وبين الإخوان، وكانت المعارضة تتمثل فيمن غلبت عليهم الرؤية السلفية مثل الإخوة: أسامة عبد العظيم في القاهرة وأحمد فريد ومحمد إسماعيل في الإسكندرية، أو من غلبت عليه الروح الجهادية مثل الإخوة: كرم زهدي وناجح إبراهيم في الصعيد، ولذلك قررنا أن نؤخر إعلام هؤلاء الإخوة بما تم الاتفاق عليه مع الإخوة.

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد كان بعض الإخوة من قيادات الجماعة الإسلامية في الإسكندرية في لقاء مع الأخ أسامة عبد العظيم وتطرق الحديث إلى الجماعة والإخوان فزل لسان أحدهم وأظنه إبراهيم الزعفراني وأخبره أن قيادات

الجماعة الإسلامية قد أنهت القضية وبايعت قادة الإخوان! فوجئ أسامة - وكان سلفيًّا - بهذا الكلام، وخرج الأمر منه إلى الآخرين، فاندلعت ثورة من التساؤلات والاستنكارات، خاصة من الجناح السلفي والجناح الجهادي.

أخذنا نفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق فقررنا أن نصارحهم بما حدث فعلًا، وأننا بايعنا الإخوان وأصبحنا منهم بالفعل، وكانت رؤيتنا أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

جرى هذا في الفترة ما بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠، وعلى إثر ذلك ظهرت مجموعة السلفيين أو تيار السلفية العلمية في الإسكندرية، ويمثله الإخوة محمد إسماعيل وأحمد فريد ومعهم أسامة عبد العظيم في القاهرة وعبد الله سعد الذي كان نشطًا جدًّا في جامعة الأزهر- هو الآن رجل أعمال، كما ظهرت مجموعة الجهاديين الذين أسسوا تيار العنف في المنيا وأسيوط وعلى رأسهم كرم زهدي وأسامة حافظ وناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة ...

أخذت الأمور تستقر تدريجيًّا وانحصر نقد الإخوة في التيار السلفي لنا كإخوان في دروس ومحاضرات تتهمنا بأننا أصحاب بدع وتحلل من الدين، وقد أخذ هؤلاء الإخوة منا جهدًا كبيرًا في الحوار معهم حتى دخلنا المعتقل في سبتمبر عام ١٩٨١.

أما مجموعة الصعيد فقد صرنا في نظرهم مهادنين متخاذلين آثرنا العافية بدلًا من مقارعة النظام، وكنا في البداية نرد عليهم بأن اختيارنا هذا نوع من الإعداد والتمهل وعدم التسرع في الأخذ بالأسباب.

وتدريجيًّا بدأ التمايز بين هذه المجموعات الثلاث وفقدنا السيطرة على الطرفين الآخرين: السلفية والجهادية، وكان الأشد خطرًا مجموعة الجهاديين الذين بدأوا يمارسون العنف بشكل بارز، مثل بعض العمليات التي قاموا بها عام ١٩٨١ من تكسير بعض الكازينوهات، وضرب البنات المتبرجات على كورنيش النيل في المنيا، والهجوم على الطلاب الأقباط واحتجازهم في المدينة الجامعية في أسيوط.

واستمر الحال على هذا حتى وقعت واقعة اغتيال السادات، فالتقينا ثانية ولكن في السجون تحت سياط التعذيب!

أتصور أنه في اللحظة التي قررنا كمسئولين عن الجماعة الإسلامية في الجامعة أن ننضم بجماعتنا للإخوان المسلمين، كنا قد أجبنا عن سؤال التنظيم وصرنا تنظيمًا بالفعل قبل أن نسلّم هيكله للإخوان الذين صاروا قيادة على رأسه... لقد كان الإخوان بيتًا ملأ شباب الجماعة الإسلامية فراغه وضخوا فيه الدماء ونصّبوا قادة الإخوان عليه مجددًا.

لقد ارتضينا أن نبايع الإخوان وأن نكون تابعين لقادتهم وارتضينا أن يكونوا قادتنا وفوق رءوسنا... ومن ساعتها أصبح تنظيم الجماعة الإسلامية الذي بنينا هيكله في المحافظات هو تنظيم الإخوان المسلمين.

ومع تخرج مجموعة القيادات المؤسسة للجماعة الإسلامية من الجامعة عام ١٩٧٦، بدأنا نطلب من كل خريج أن يرجع إلى محافظته خارج القاهرة ليتصل بالقيادة الجديدة للجماعة في محافظته، وكنا نوجه الإخوة إلى الاتصال بقائده في الجماعة الإسلامية الذي يقوم بتسليمه للمسئول الجديد من قيادات الإخوان التاريخية.

وكانت قيادات الإخوان في المحافظات المختلفة وقتها تتسلم هؤلاء الخريجين من مسئولي الجماعة الإسلامية، وفي الإسكندرية - على سبيل المثال - كان الأخ إبراهيم الزعفراني مسئول الجماعة الإسلامية وكان الحاج عباس السيسي مسئول الاتصال من جماعة الإخوان والذي يفترض به أن يتسلم الخريجين... وهكذا.

وللحقيقة فإننا حين بايعنا الإخوان لم نبايع تنظيمًا قائمًا في الواقع، وإنما بايعنا فكرة ومشروعًا وتاريخًا... إذ لم يكن هناك تنظيم إخواني بالمعنى الذي تعنيه كلمة «تنظيم»... وإنما كان هناك مجموعة أفراد أو قيادات تاريخية تسلمت منا قيادة التنظيم الحقيقي الموجود في الواقع: وأعني به الجماعة الإسلامية... كان في كل محافظة أو مدينة كبرى قيادة إخوانية تاريخية تم اعتمادها: في محافظة الغربية الحاج أحمد البس، وفي المنصورة الأستاذ محمد العدوي، وفي الإسماعيلية الحاج علي رزة،

وفي البحيرة الأستاذ الدسوقي بقنينة، وفي السويس الحاج عبد العزيز العزازي، وفي بورسعيد الحاج عبد العزيز حمودة؛ والذي كنا قد تزاملنا معًا في محاكمات عام ١٩٩٥ العسكرية وحكم علينا فيها بالسجن معًا.

وهكذا بدأ التنظيم يتمدد في أنحاء القطر وبدأت قيادة الإخوان تصعد إلى قمته وتسيطر عليه... وكان معظم هذه القيادات من الذين تربوا في النظام الخاص، وكانوا هم الذين يتصلون بالخريجين، وكانوا يغطون معظم محافظات الجمهورية تقريبًا... في الوقت الذي ظلت القيادات الطلابية (أبناء الجماعة الإسلامية) في القيادة كما هي بعد التحاقها بالإخوان ولكن بتوجيهات من قيادة الإخوان.

وينبغي التوقف أيضًا أمام حقيقة تاريخية تتمثل في أن الذين بايعوا الإخوان هم القطاع الأكبر من بين قادة وكوادر الجماعة الإسلامية، وأن الذين رفضوا هذا التوجه كانوا أقلية على الرغم من أنهم انتشروا بعد ذلك كتيارات وجماعات مستقلة عن الإخوان المسلمين، مثل الدعوة السلفية التي أسسها إخواننا الذين رفضوا الانضواء معنا ضمن الإخوان المسلمين وفي مقدمتهم الإخوة محمد إسماعيل وسعيد عبد العظيم وأحمد فريد. أو التيار الجهادي الذي ظهر في الجماعة الإسلامية ثم تنظيم الجهاد؛ مثل كرم زهدي وأسامة حافظ وناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد.

فالتيار الغالب هو من دخل الإخوان، اللهم إلا في محافظات بعينها مثل محافظة أسيوط التي كانت الغلبة فيها للإخوة في التيار الجهادي، فلم تكن في أسيوط قيادات إخوانية كبيرة تستطيع استيعاب هؤلاء الشباب بعكس ما كان في المحافظات الأخرى كالإسكندرية حيث الحاج عباس السيسي والحاج محمود شكري، أو بني سويف التي كان بها الحاج حسن جودة، أو المنيا التي كان بها الحاج أحمد عبد المجيد وكانت بها قيادة طلابية كبيرة مثل الأخ محيي الدين عيسى... أما أسيوط حيث الجامعة فلم تكن هناك قيادات إخوانية كبيرة فاستطاع الإخوة الجهاديون الانقلاب على الأخ أسامة سيد أحمد أمير الجماعة الإسلامية هناك، فقد كانوا يعرفون علاقته بالإخوان حيث كان أبوه منهم فرتّبوا انقلابًا عليه واستولوا على إمارة الجماعة الإسلامية هناك ثم صارت أسيوط لهم معقلًا وضعف النفوذ الإخواني فيها.

كان أول ارتباط تنظيمي لي بجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٧٥ قبل بقية إخواني من الجماعة الإسلامية وقبل إعلان بيعة قادة الجماعة الإسلامية للإخوان علنيًّا، في هذا العام التحقت بأول أسرة تربوية داخل جماعة الإخوان، وكانت تضمني والأخ سناء أبو زيد وهو دفعتي في كلية الطب، والأخ عبد المعطي الجزار وكان أستاذًا في الطاقة الذرية ويسبقنا سنًّا، وكان مسئول الأسرة الأخ مبارك عبد العظيم، وهو كذلك أكبر منا سنًّا إذ ينتمي إلى جيل الإخوة جابر رزق وإبراهيم شرف... وهو الجيل الذي يقف تاريخيًّا بين جيل ١٩٥٤ وجيل تنظيم ١٩٦٥ داخل الجماعة. والأخ مبارك عبد العظيم كان مدرسًا للعلوم بالمعاهد الأزهرية ولم تعد له بالإخوان صلة إدارية أو تنظيمية.

وقد بقينا معًا في هذه الأسرة مدة سنة كاملة إلى أن انتقلنا إلى أسرة أخرى كان المسئول عنها الأستاذ الحاج محمود أبو رية الذي كان يعمل مستشارًا في منظمة التربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية، وهو أحد كبار الإخوان وقتها، وقد كان سكرتيرًا للإمام حسن البنا في عقد الأربعينيات، وفيما بعد صار مسئولًا عن الإخوان في محافظة القاهرة، ولما كبرت سنه رجع إلى بلدته في مدينة المنصورة وصار مسئولًا عن الإخوان في محافظة الدقهلية... والطريف أنه – رحمه الله – عاد بعد ذلك ليحاكم معنا في القضية العسكرية عام ١٩٩٥ وقضينا معه في السجن ثلاث سنوات كاملة رغم شيخوخته – رحمه الله.

انتقلنا – الأخ سناء أبو زيد وأنا – إلى هذه الأسرة وكان معنا فيها الأخ المهندس محمد الصروي – رحمه الله – وقد كان مسئولًا عن محافظة الجيزة، والأخ السيد الجندي – رحمه الله – وقد كان يعمل محاسبًا في الجمعية التعاونية للبترول، والأخ الأستاذ أحمد توفيق وكان يعمل تاجرًا في منطقة العتبة وكان أكبر منا سنًّا وينتمي إلى الجيل الذي نشأ ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٥... وقد كانت هذه الأسرة من الأسر الرئيسية للإخوان في هذه الفترة التي بدأت الجماعة تستعيد فيها نظام الأسر التربوية ثانية وكانت مسئولة عن مجمل عمل الإخوان في محافظة القاهرة.

الجماعة الإسلامية أقوى أجيال الحركة الطلابية

وللتاريخ أقول إن الجماعة الإسلامية التي ولدت في أحضان الجامعات المصرية يعز أن نجد لها مثيلًا في تاريخ العمل الإسلامي والطلابي وخاصة في مصر. لقد كانت هذه الجماعة تجربة فريدة في العلاقات الإنسانية والأخوية بين أبنائها، وكانت مثالًا نادرًا للتجرد والإخلاص والرغبة الصادقة في العمل لنصرة دين الله ولأجل الوطن. كنا مجموعة من الشباب الذين لم تجمع بينهم أي مصلحة شخصية أو توجه سياسي، أو يحركهم تنظيم معين، وكانت تربطنا علاقة محبة وأخوة صادقة تزيد عما بين إخوان النسب من قوة وصدق.

لم نتعرف إلا على الله وعلى العمل من أجله، وأحسب أن علاقاتنا كانت صافية خالصة لوجهه ومن دون أي نوازع شخصية حتى إننا كنا نؤثر بعضنا ونتسارع في إنكار الذات ولم تكن قضايا الإمارة والرئاسة تعني أحدًا منا أو تشغل باله.

وأحسب أن هذه الفترة شهدت عملًا تربويًّا هائلًا قامت به الجماعة الإسلامية وأثر في أجيال الطلاب في كل جامعات مصر، فقد استضافت عشرات الشيوخ والعلماء وأقامت مئات المعسكرات الطلابية وربّت آلافًا مؤلفة من الشباب في كل أنحاء مصر وتركت فيهم أثرًا لا يمكن أن يمحى حتى من التحق منهم بجماعات إسلامية أخرى أو ترك العمل الإسلامي برمته. وهو جهد أحسب أنه أكبر مما بذل في كل مراحل الحركة الإسلامية فيما بعد.

ولا أبالغ إذا ما قلت إن جيل السبعينيات كان الأقوى والأكثر نضجًا وتأثيرًا بين كل أجيال الحركة الطلابية الإسلامية. ساعد على ذلك ظروف البلاد وأجواء الحرية والانطلاق التي عاشها في عصر الرئيس السادات، كما ساعد على ذلك أننا بدأنا من لا شيء ولم ندرك مرحلة الإخوان السابقة علينا في الخمسينيات والستينيات وما أصابها من صراعات وخلافات... لقد كنا نعيش لحظة البراءة والفطرة النقية التي لم تخالطها السياسة والتنظيمات بعد. لذلك لما دخل جيلنا العمل الإسلامي فيما بعد لم تحدث صراعات أو خلافات كالتي وقعت للأجيال التي قبلنا... وما زالت تلك سمة تميز الجيل الأول من الجماعة الإسلامية أيام وحدتها.

وأحسب أن جزءًا من قوة الجماعة أنها الأقوى في تاريخ الحركة الطلابية الإسلامية ذاتية النشأة والقيادة. فقد بدأنا بلا رؤساء أو قادة سابقين علينا، وتحركنا بذاتية وعفوية حتى في أخطر القرارات التي اتخذناها... فخففت هذه الذاتية من استفزاز النظام وقللت من مخاوفه إزاء فكرة سيطرة الإخوان على الحركة الطلابية الجديدة. كما أن الذاتية أنضجتنا كثيرًا وأعطتنا قدرات أكبر مما لدى أقراننا والأجيال الجديدة.

على خطى تفكير النظام الخاص

وإذا تحدثنا عن علاقتنا بالإخوان قبل الانضمام إليهم يمكنني القول إن أفكارنا ومنهجنا كان أقرب إلى المنهج وطريقة التفكير التي كانت تسيطر على إخوان تنظيم ١٩٦٥، فقد كانت لديهم منهجية الانقلاب والثورة، وكان لديهم رغبة في الانقلاب على جمال عبد الناصر، انتقامًا منه لما فعله بالبلاد.

بل أكثر من ذلك أرى أن إخوان النظام الخاص مثل الأساتذة مصطفى مشهور وكمال السنانيري وحسني عبد الباقي وأحمد حسنين وأحمد الملط، كانت لديهم منهجية قريبة منا، وأنهم حين خرجوا من السجون كانوا يحملون نفس الأفكار التي كنا نحملها، لذلك كانوا أقرب لنفوسنا في ذلك الوقت من غيرهم من الإخوان القدامى الذين تربوا بالقرب من الأستاذ حسن البنا، مثل الأساتذة عمر التلمساني وصلاح شادي وفريد عبد الخالق وصالح أبو رقيق.

ولعله كان من أقدار الله الطيبة أن نلتقي أولًا بأفراد التنظيم الخاص المتشددين أصحاب الاتجاه الأصولي قبل لقائنا مع القيادات الكبرى الأكثر اعتدالًا، فلو أن الاتصال الأول كان مع كبار الإخوان المعتدلين أمثال الأستاذ عمر التلمساني والمقربين منه لكنا حسمنا أمرنا بعدم الانضمام للجماعة!!

لقد عانينا كثيرًا - كشباب متشدد مثالي- مع قيادات الجماعة المعتدلة، بسبب ما كنا نراه ونعتبره تساهلًا منهم في أمور دينية لم نكن نتصور أن يتساهل فيها أمثالهم، وما كان يلطف الأجواء بيننا هو القيادات الأصولية من رجال التنظيم الخاص وتنظيم ١٩٦٥!

أذكر أننا كنا في لقاء مع الأستاذ عمر التلمساني، وكنا نتناقش في قضية بالغة الأهمية، وجاءه الأخ إبراهيم شرف - رحمه الله - وكان سكرتيره، وإذا به يستأذن منه أمامنا في الانصراف لكي يشاهد مباراة كرة قدم بين ناديي الأهلي والزمالك!! كان هذا موقفًا غريبًا ومستنكرًا منا؛ لقد كنا - وقتها - نرى أن هذا من السفه وتضييع الوقت الذي لا يصح بحق المسلم الملتزم فضلًا عن الإخوة المجاهدين... نعم كنا نمارس الرياضة ولكن لا نشاهدها أو نضيع أوقاتنا أمامها... وأنه لا شيء من متاع الدنيا مقدم على الدعوة والجندية، وأن البذل في سبيل الله أهم من آبائنا وأمهاتنا ومن أي شيء آخر فضلًا عن كرة القدم.

والمفارقة كانت في رد الأستاذ عمر الذي قال له: طيب روح إنت يا إبراهيم!!!

لقد كان من المفروض في تصورنا أن يرفض الأستاذ عمر طلبه ويذكره بالأهم... لكن هذا ما جرى فكان له وقع سيئ إذ كان موقفًا غريبًا على سلوكنا وطباعنا في هذا الوقت.

في الفترة التي تعرفنا فيها على الإخوان كان في الجماعة تياران رئيسيان، التيار الأول تمثله مجموعة النظام الخاص، وامتداداته في تنظيم ١٩٦٥ الذي كان قد ارتبط بالشهيد سيد قطب، إضافة إلى مجموعة من الإخوان بدأت مع الإخوان بعد عام ١٩٥٤ مع بداية المحنة، وهؤلاء ما كانوا من الإخوان القدامى ولا من الجيل الذي انضم بعد ذلك ومنهم الإخوة: إبراهيم شرف وجابر رزق وصبري عرفة الكومي.

أما التيار الثاني فهو الأكثر تأثرًا بمنهج الأستاذ الإمام حسن البنا الذي كان إصلاحيًّا معتدلًا متدرجًا سلميًّا غير مؤمن بالعنف كما هو حال منهج التيار الأول، وما أراه أن هذا الاختلاف لم يكن مقصودًا أو متعمدًا ولم تكن أدوارًا مقسمة بينهم بل كان هناك أسلوبان فكريان مختلفان في صف الجماعة خاصة أثناء محنتي ١٩٥٤ و١٩٦٥.

وأتصور أيضًا أن الأفكار الانقلابية كانت طارئة على الإخوان وتأثرت إلى حد كبير بكتابات الشهيد سيد قطب، وأنها لم تكن تعبر عن الخط الأساسي لجماعة الإخوان كما وضعه الإمام الشهيد حسن البنا، وأرى أنه قد حدث خلط كبير في هذا

الأمر حين ادعى البعض أن الأستاذ حسن الهضيبي - رحمه الله - كان على علم بأفكار هذا التنظيم - ١٩٦٥ - ومنهجه الانقلابي، وهذا - في رأيي - غير صحيح تمامًا، فهو كان ممن يرفضون التغيير بالعنف، وكانت له وقفته المشهودة ضد تيار التكفير وما زال كتاب «دعاة لا قضاة» مرجعًا أساسيًّا في التصدي لهذا التيار... أما مسألة علاقة الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - بهذا التنظيم، فهو أمر يحتاج إلى التمحيص والنظر.

الحسم بين تياري النظام الخاص والعمل العام

وأتصور أن الجماعة - الإخوان - ظلت طوال عقد السبعينيات تضم داخلها كِلا التيارين، وأنها لم تحسم توجهها الاستراتيجي في قضية العنف إلا عام ١٩٨٤، الذي كان عام الحسم والعودة الحقيقية لفكر المدرسة الأولى؛ مدرسة حسن البنا البعيدة عن أفكار النظام الخاص وتنظيم ١٩٦٥، والتي تقوم على العلنية واحترام المشروعية واعتماد نهج التغيير السلمي.

وسبب تحديدي لهذا العام؛ أنه العام الذي قررت الجماعة فيه الدخول بقوة في العمل العام، فحين قررت الجماعة خوض انتخابات النقابات دار بيننا حوار داخلي، وكانت هناك تساؤلات حول المنهج الذي ستدخل به الجماعة في العمل العام، وحول جدوى سبيل التغيير السلمي من خلال مؤسسات المجتمع المدني.

وقد حسمت الجماعة أمرها باختيار سبيل العمل السلمي الإصلاحي وتجاوز فكرة العنف تمامًا، وأذكر وقتها أن الأستاذ صالح أبو رقيق قال في تصريح للصحافة: إن جماعة الإخوان قد طلقت العنف ثلاثًا!

وقد كان الفضل في هذا - بعد الله - للأستاذ عمر التلمساني الذي أحدث تطويرًا كبيرًا في طريقة تفكيرنا نحن الشباب، بما جعل من المستقر في أذهاننا أن التغيير بالقوة هو فكرة ساذجة ولن تأتي بنتيجة، وأن خسائرها أكثر من مكاسبها. وكان مما حسم حوارنا الداخلي ناحية نهج التغيير السلمي تقييمنا للتجارب الفاشلة التي لم تأتِ بنتيجة.

كان هذا الحوار مطروحًا منذ ديسمبر ١٩٨٣ ثم استمر في ١٩٨٤ مع قرار خوضنا انتخابات مجلس الشعب وتحالفنا مع حزب الوفد الليبرالي، ثم بدأ دخول الانتخابات النقابية وكان أولها في نقابة الأطباء.

لقد كنت من الذين تحمسوا مع الأستاذ عمر التلمساني في قرار خوض الانتخابات، وكان معنا الإخوة عصام العريان وحلمي الجزار وإبراهيم الزعفراني... وبقية المجموعة التي تمثل القيادات الحركية الشابة للإخوان.

ومن الجيل القديم الذين ساندوا قرار خوض الانتخابات البرلمانية الأساتذة: صلاح شادي وفريد عبد الخالق وكذلك الدكتور أحمد الملط الذي كان نائبًا للأستاذ عمر التلمساني منذ ١٩٨١، والذي أستطيع أن أؤكد من خلال معرفتي الوثيقة به أنه كان صاحب فكر منفتح، وكان يميل إلى الأخذ بالتيسير خاصة في المسائل الفقهية... وأذكر أنني كنت أزوره ذات مرة في منزله فوجدت عنده «بيانو»... وعلى غير ما كان يشاع عنه كان الدكتور الملط يؤمن بنهج التغيير السلمي ولم يكن انقلابي النزعة، والدليل على رأيي هذا إنشاؤه للجمعية الطبية الإسلامية في أواخر السبعينيات رغبة منه في العمل العام المتصل بالجماهير.

ومن المهم التوقف عند هذا العمل الرائد الذي قام به الدكتور أحمد الملط والذي يؤكد أنه كان من أصحاب منهج البناء وليس الانقلاب. وهي جمعية من المفترض ألا يقتصر نشاطها على العلاج بل يتجاوزه إلى كل ما يخدم المسلمين في مجال الطب... وهو ما طمح إليه مؤسسها الدكتور الملط - رحمه الله.

فقد كان الدكتور الملط يطمح إلى أن تكون جمعية طبية شاملة لأبعد من موضوع العلاج فتقدم تعريفًا لواجبات الطبيب المسلم، وتشجع على الصلات بين الأطباء المسلمين، وتساعد طلبة الطب على استكمال دراساتهم وتقويم سلوكهم كأطباء مسلمين يؤدون رسالة سامية، كما تساعدهم في التخصص في فروع الطب المختلفة وتحصيل أعلى الشهادات فيها وتساعدهم في بحوثهم الطبية وفي مجال البعثات الطبية، كما تساهم في نشر الوعي الطبي بين المسلمين وتعرف برأي الشرع في النظريات الطبية الجديدة وتطوعها لقواعد الإسلام وتبسطها للعامة... هذا بالإضافة إلى إنشاء المؤسسات العلاجية وهو عملها الأول.

وقد نصت الجمعية في قانونها الأساسي على أن تقوم كل أنشطتها على قواعد الإسلام وألا يتقاضى العاملون فيها إلا أجورًا رمزية وما يزيد على المصاريف والأجور يستخدم في توسعتها وإقامة مشروعات جديدة.

كان حديثي عن الجمعية الطبية الإسلامية لبيان منهج الدكتور الملط وكيف أنه كان «بَنَّاوِيًّا» ومن ثَمَّ فقد كان موقفه مع الدخول في الانتخابات بعكس ما تصور البعض عنه، وأتصور أنه والأستاذ عمر التلمساني عانيا كثيرًا من بعض الأفكار المتشددة حين اتخذ قرار خوض الانتخابات.

وأعتقد أن عودة الجماعة لنهج إمامها ومرشدها المؤسس الشهيد حسن البنا كان له تأثيرات إيجابية في قدرتها على استيعابنا، وأن النهج السلمي المعتدل لم يكن عند الإخوان تكتيكيًّا، بل كان استراتيجية دائمة حتى في فترات الشدة، فقد كان واضحًا تمامًا أن المجتمع هو مجتمع مسلم بغض النظر عن الخلل الذي أصابه حتى وإن كان كبيرًا، ووجود أخطاء وخلل به لا يجعله غير مسلم، فهو ليس مجتمعًا ملائكيًّا، وقد كان بمجتمع الرسول ﷺ أخطاء وذنوب، حتى إن بعض الصحابة - حاطب بن أبي بلتعة - وقع فيما يطلق عليه الآن الخيانة العظمى... ولم يتم تكفيره.

وقد كان من أسباب رسوخ الفكر المعتدل في أذهاننا نحن الشباب في ذلك الوقت، احتكاكنا المستمر بمؤسسات الدولة وهيئات المجتمع المدني والتواصل المباشر مع مسئولي النظام والقوى السياسية المخالفة لنا، كان أولًا في اتحادات الطلاب.

لذلك فإن مقاومة الفكر المتطرف - في اعتقادي- لا تؤتي ثمارها إلا بترك القوى المتطرفة تتعامل مع مجتمع فيه حرية وديموقراطية وانفتاح، وهو ما يقضي على دعوة القطيعة مع المجتمع أو الدعوة للانفصال عنه كما كان سائدًا بيننا آنذاك.

مجلة الدعوة

ولا يمكن أن نتعرف على تاريخ الحركة الطلابية الإسلامية في هذه الحقبة - عقد السبعينيات - دون التوقف عند مجلة الدعوة وتأثيرها في تغيير أفكارنا وتحديد وجهتها. كانت مجلة الدعوة تصدر من أيام الشيخ حسن البنا وكان صاحب امتيازها

الأستاذ صالح عشماوي، وقد توقفت مع الصدام بين الإخوان والثورة... ولما عاد الإخوان للعمل في السبعينيات واستقر وجودهم سُمح لهم بإعادة إصدار المجلة مرة أخرى بإدارة وإشراف الأستاذ عمر التلمساني ورئاسة تحرير الأستاذ صالح عشماوي صاحب الامتياز. فصدر العدد الأول منها في يوليو ١٩٧٦ وكانت تلك بداية عامها الخامس والعشرين.

لقد كان للدعوة تأثير كبير في وعينا في هذه الفترة، كان سعرها عشرة قروش (١٠٠ مليم) نوفرها كل شهر لشراء العدد، كان يكتب فيها شيوخ الدعوة وأساتذتها وشيوخ الأزهر وعلمائه وكثير من العلماء والمفكرين.

كان كثيرًا ما يكتب فيها الشيخ يوسف القرضاوي خاصة في القضايا التي تتعلق بتكوين الدعاة وترشيد الصحوة، كانت له سلسلة مقالات في «ثقافة الداعية» كان لها تأثير مهم في تكويننا الفكري والشرعي... وكان هناك عدد من الدعاة يشاركون فيها بالكتابة مثل الشيوخ عبد اللطيف مشتهري وعبد الحميد كشك وصلاح أبو إسماعيل وحسن أيوب... كما شارك في الكتابة فيها في أبواب مختلفة من الفكر والحركة والدعوة أساتذة وكُتاب مثل عبد العظيم المطعني وسالم البهنساوي وعبد الله الطنطاوي وعبد الجليل شلبي وعمارة نجيب ومحمد رشاد خليل.

كانت المجلة تدور في مجملها على فكرة أن الإسلام نظام شامل للحياة، وتتحدث عن وجوب العمل الإسلامي وحتمية الحل الإسلامي.

كان الأستاذ محمود أبو السعود يكتب في الاقتصاد الإسلامي ومعه الدكتور عيسى عبده، وكذلك الأستاذ يوسف كمال الذي كانت له مقالات غزيرة في هذا الموضوع، وكان المستشار مصطفى كمال وصفي نائب رئيس مجلس الدولة يكتب في القضايا الدستورية من وجهة نظر إسلامية، وكانت له سلسلة مقالات عن «النظام الدستوري في الإسلام»، وقد وضع مشروعًا لدستور إسلامي للبلاد... كما كان يكتب في هذا الموضوع الأستاذ المستشار علي جريشة وكان من أشهر ما كتبه في هذه القضية مقالة بعنوان: «القرآن فوق الدستور». وفي قضايا الفكر الحركي كان يكتب الأستاذ فتحي يكن من لبنان سلسلة مقالات مهمة لتحفيز الشباب الإسلامي على العمل ضمن

الحركة تحت عنوان: «ماذا يعني انتمائي للإسلام؟»، ونُشرت فيما بعد في كتاب بالعنوان نفسه.

كانت المجلة تركز على نقد الحقبة الناصرية وأركان النظام الناصري بمن فيهم الرئيس جمال عبد الناصر، ففتحت ملفات التعذيب والمذابح التي تعرض لها الإخوان في سجون ناصر مثل مذبحة ليمان طرة التي راح ضحيتها عشرات الإخوان ما بين قتيل وجريح بعدما أطلق الجنود النار على المعتقلين حتى إن بعضهم أصيب بالجنون من هول المذبحة!

وكانت تحرص على أن تعرف بشهداء الإخوان في هذا العهد مثل سيد قطب ويوسف طلعت وعبد القادر عودة وإبراهيم الطيب ومحمد فرغلي... وكل من طالهم التعذيب أو القتل أو الإعدام.

كما كانت المجلة تعرّف برموز الإخوان وقادتهم التاريخيين منذ تأسيس الجماعة خاصة الإمام المرشد الشهيد حسن البنا، كما كانت تسرد وقائع من حياتهم وجهادهم في سبيل الدعوة، وكانت تعيد نشر كتاباتهم وأقوالهم لتُعرف جيلنا والأجيال الجديدة بها... فأعادت نشر رسائل الإمام البنا وأقواله... وكانت تنشر في الصفحة الأولى من كل عدد عقيدتنا التي صاغها الإمام البنا... كما كان الأستاذ محمد عبد الحميد أحمد يكتب سلسلة مقالات: «الإخوان المسلمون - صفحات من الأمس».

كما نشرت لشيوخ الدعوة وقادتها مقالات وحوارات في قضايا ووقائع محل اهتمام جيلنا، مثل قرار حل الجماعة أو الصدام مع الثورة أو غيرها من القضايا. فكان ينشر فيها صلاح شادي وصالح أبو رقيق وعبد المتعال الجابري وعبد الودود شلبي.

كما كانت تخوض حربًا ضروسًا ضد اليسار والماركسيين خاصة من مثقفي هذا التيار ورموزه الذين كانوا ضمن السلطة في العهد الناصري أو الذين ظلوا فيها في عهد السادات... وقد خاضت معارك ضد الهجوم على الحجاب من بعض الكُتاب والكاتبات اليساريات (مثل سهير القلماوي)... كما كانت المجلة شديدة النقد للشيوعيين وكثيرًا ما ساندت شيخ الأزهر الإمام الأكبر عبد الحليم محمود في

مواجهاته معهم... وأذكر أننا اشتبكنا في هذه المعركة وأصدرت الجماعة الإسلامية في جامعة الأزهر بيانًا عام ١٩٧٨ أعلنت فيه دعمها لشيخ الأزهر في رفضه للشيوعية والشيوعيين ودعت إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت مجلة الدعوة من أهم المنابر التي أثارت قضية الشريعة الإسلامية والنص عليها في الدستور وتطبيق أحكامها فجعلتها محورًا للاهتمام والنقاش في الحياة الثقافية والسياسية في مصر... وكانت ملتقى كل من يهمهم أمر هذه القضية بمن فيهم شيخ الأزهر الإمام الأكبر عبد الحليم محمود الذي كان أقوى من حمل عبء هذه الدعوة. وأذكر أنها نشرت له ذات مرة رسالة وجهها إلى سيد مرعي رئيس مجلس الشعب مفادها: «الله حرم الخمر في شيراتون وشارع الهرم كما حرمها في بولاق وكلوت بك!». وذلك ردًّا على قانون يحظر الخمر في الأماكن والمحال العامة ويسمح بها في الفنادق والمنشآت السياحية للأجانب.

وقد شغلتنا هذه القضية كثيرًا وكانت من أهم موضوعات اهتمامنا حتى إننا في اتحاد طلاب جامعة القاهرة أصدرنا في عام ١٩٧٦ بيانًا حول قضية تطبيق الشريعة الإسلامية نددنا فيه بعرض القضية على مجلس الشعب للبحث والدراسة، ورفضنا فيه مجرد عرض مشروع تقنين الشريعة على المجلس لأن هذا فيه إقرار بحق المجلس في رفضه... بل إننا شكلنا لجنة داخل اتحاد طلاب الجمهورية أسميناها «لجنة متابعة تطبيق الشريعة الإسلامية». وحين عقدنا المؤتمر الحادي عشر لاتحاد طلاب الجمهورية في شبين الكوم عقدناه تحت عنوان: «من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وإيجاد لائحة ديموقراطية».

وعندما ارتفع الجدل عام ١٩٧٨ حول قانون الأحوال الشخصية وحول ما اعتبر أنه إباحة للزنى والخمر والميسر ومنع لشرع الله في التعدد أصدرنا بيانًا أعلنا فيه رفض التشريع بغير ما أنزل الله، وحذرنا من القانون إذا خرج بالصيغة المقترحة فسيكون ضد الشرع وعلى هوى النساء المتفرنجات.

وكانت المجلة تحرص على فتح ملفات قضايا التنصير والتبشير في العالم الإسلامي خاصة في إندونيسيا والفلبين وأطراف العالم الإسلامي... كما تنشر في المقابل قصصًا للذين اهتدوا للإسلام، وأضواء على الدعوة الإسلامية في إفريقيا وآسيا وأوربا.

كما كانت تهتم بالتعريف بشعوب العالم الإسلامي والأقليات المسلمة في كل أنحاء العالم، وكانت دائماً ما تنشر ببيتي الشعر اللذيْن يقولان:

ولست أرضى سوى الإسلام لي وطنًا   الشام فيه ووادي النيل سيان

وأينما ذكر اسم الله في بلد   عددت أرجاءه من لب أوطاني

كما كانت تهتم بتغطية المؤتمرات الإسلامية في معظم أنحاء العالم خاصة تلك التي يقيمها المسلمون في أمريكا وأوربا كمحاولة لإحياء فكرة الأمة الإسلامية، وكمحاولة للتعريف بالنشاطات والحركات الإسلامية في العالم الإسلامي وفي الغرب.

وكان هناك باب أدبي يطلق عليه «من أدب الغرباء» وتنشر فيه الأعمال الأدبية «الإسلامية» والتي دائماً ما كانت تستوحي عذابات السجون وقصص معاناة الإخوان في العهد الناصري ومحنهم. وكان من أهم من يكتب فيها زكريا التوابتي ومحمود الماحي وجمال فوزي... ومن جيلنا الشاعر عصام الغزالي.

كانت مجلة الدعوة بالنسبة لنا من أهم ما أثّر في تفكيرنا وقربنا من الإخوان وصاغ اهتماماتنا ورؤيتنا الإسلامية... كانت المجلة تضم عددًا من الصحفيين الإخوان من أجيال سابقة من أبرزهم الإخوة عبد المنعم سليم جبارة وجابر رزق... كما جذبت عددًا من الشباب الإسلامي الذين انتموا لاحقًا للإخوان مثل محمد عبد القدوس وبدر محمد بدر وصلاح عبد المقصود... وكانت تحظى بانتشار واسع حتى بلغ توزيعها أكثر من ٨٥ ألف نسخة شهرية... وقد ظلت حتى أغلقها السادات في عام ١٩٨٠. بعدما تشدد خطابها في السنة الأخيرة خاصة بعد زيارته للقدس وعقده لمعاهدة كامب ديفيد ثم زاد تصعيدها بعد استقباله لشاه إيران... فكانت نهايتها بقرار الوقف.

الثورة الإيرانية

في نهاية السبعينيات بدأت نُذر الثورة الإسلامية في إيران، وقتها كنا شبابًا نفيض حيوية وتسيطر علينا روح ثورية ورغبة في التغيير واقتلاع أنظمة الجور والاستبداد والعمالة للأجنبي وتعطيل شرع الله، وكان شاه إيران بالنسبة لنا أحد طواغيت هذه

الأنظمة ورموزها التي لم تعد تستحي من إعلان الاستبداد والعمالة للولايات المتحدة الأمريكية، وجاءت الثورة؛ ثورة شعبية إسلامية تريد اقتلاع طاغية من طواغيت العصر، وكان هذا كافيًا للتعاطف مع هذه الثورة بل الإعجاب بها وتقديرها، فهي نموذج لثورة الشعوب على الظلم والاستبداد والفساد، وكنا نرى فيها أملًا لنا كقادة لحركات إسلامية تعيش إحساس الاضطهاد من قبل أنظمة ظالمة فاسدة.

والحقيقة أن موقفنا من الثورة الإسلامية في إيران كان جد معقد، فنحن أيدناها ورحبنا بها ورأينا فيها نموذجًا يحتذى لكن كونها ثورة شيعية كان سببًا في الحد من الانفتاح عليها والتفكير في الاقتراب منها والتأثر المباشر بها، كانت السلفية الوهابية حاضرة بقوة في تكويننا الفكري وقتها فأقامت حاجزًا بيننا وبين هذه الثورة وهو الحاجز الذي صار جدارًا شاهقًا بسبب ما أحدثته هذه الثورة من خوف وهلع لدى الأنظمة العربية الحاكمة التي فعلت الكثير للتخويف منها خشية أن تقوم الدولة «الشيعية» الجديدة بتصدير الثورة إليها.

ورغم تأثرنا بالفكر السلفي ووقوعنا في دائرة الدعاية الرسمية المضادة فقد استقبلنا الثورة الإسلامية في إيران بحماس شديد، واعتبرناها نصرًا للمشروع الإسلامي وأعلنا رفضنا للموقف الرسمي المناهض لها وانتقدنا موقف الرئيس السادات واستقباله للشاه المخلوع في القاهرة وإيوائه في مصر بعد أن رفضت دول كثيرة بما فيها حليفته أمريكا استقباله، فقد كان الشاه في نظرنا حاكمًا ظالمًا مستبدًا يستحق من شعبه أن يثور عليه ويخلعه ورأينا في سلوك السادات إساءة للثورة الإسلامية بل طعنًا فيها، وأذكر أننا حركنا المظاهرات المناهضة لموقف السادات واستقبال الشاه في مصر والمؤيدة للثورة في إيران.

أما على مستوى القيادات الكبرى في الإخوان فقد كان موقفهم متوازنًا؛ فاعتبروها ثورة إسلامية يجب الحرص على التواصل المباشر مع قادتها من قريب أو بطريق غير مباشرة، ولكن كان معظم الاتصال مع الإخوان خارج مصر ربما مراعاة لحساسية النظام المصري تجاه وجود صلات بين الثورة وبين قوى سياسية في مصر خاصة إذا كانت معارضة ومن الحركة الإسلامية على وجه الخصوص!

كان مسئول الاتصال بين الإخوان وقيادة الثورة الإيرانية إلى هذا الوقت الأستاذ يوسف ندا رجل الأعمال المصري المقيم في سويسرا، وكان يوسف ندا مصدر المعلومات الرئيسي للإخوان عن الثورة ورؤيتها وأدائها وكل ما يتعلق بها من تفاصيل. وزار وفد من قيادات الإخوان خارج مصر إيران للتهنئة بالثورة وكان على رأس الوفد الأستاذ عبد الرحمن خليفة المراقب العام للإخوان في الأردن الذي كان وقتها نائبًا عن المرشد العام، وتم ذلك بناءً على اقتراح من يوسف ندا قَبِله الأستاذ عمر التلمساني المرشد العام.

وكنت وأبناء جيلي من قادة الجماعة الإسلامية في الجامعات مؤيدين لتلك العلاقة بين الإخوان والثورة ومرحبين بتوثيقها، فقد رأينا فيها استعادة لمبادرة قديمة للإمام المؤسس الشهيد حسن البنا للتقريب بين السنة والشيعة جمعًا لشمل الأمة، وكان قد استضاف المرجع الشيعي السيد محمد تقي قُمّي في مصر وصلى وراءه وأسسا ومعهما عدد من شيوخ الأزهر الأجلاء دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتي كانت تهدف إلى تأكيد الوحدة بين المسلمين بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية. لقد كانت وحدة الأمة من الأفكار الطاغية علينا في ذلك الوقت إلى حد مصادرة المشاعر الوطنية والقومية في بعض الأحيان حتى كنا نعد من ينادي بالانتماء لوطنه فقط خارجًا على منهج الإسلام الداعي إلى وحدة الأمة الإسلامية والارتفاع عن القومية والوطنية. وقد كان ذلك - أيضًا - امتدادًا للفكر السلفي الذي تشربناه في ذلك الوقت.

وقد استحضرنا في تعاطفنا مع الثورة الإسلامية في إيران أن هناك صلات تاريخية كانت تجمع بين الحركة الإسلامية في مصر ونظيرتها في إيران منذ الخمسينيات وأن نوّاب صفوي مؤسس حركة «فدائيان إسلام» وأحد الرموز الإسلامية الشهيرة في إيران كان قد زار دار الإخوان فأحسنوا استقباله وأن طلاب الإخوان في جامعة القاهرة استضافوه ونظموا له تظاهرة حاشدة خطب فيها في جموع الطلاب.

لكن حماسنا للثورة بدأ يخفت تدريجيًّا خاصة بعدما بدرت منها روح طائفية في بعض المواقف والتي استغلت للتشهير بها وتقديمها على أنها دولة صفوية جديدة

تُكن العداء لأهل السنة، ثم جاءت الحرب بينها وبين العراق لتزيد من فتور مشاعر التضامن معها... والحق أنه رغم ذلك يمكن القول إن موقفنا من الحرب العراقية الإيرانية كان متوازنًا، وإننا لم نكن نشعر بالتعاطف مع أحد الطرفين، فلم نكن مع إيران في حربها ضد دولة عربية مسلمة كالعراق كما أننا لم نقبل دعايات صدام حسين أو نقتنع بها فقد كنا نراه ظالمًا فاسدًا اضطهد شعبه وصادر الحركة الإسلامية في بلاده.

الغزو السوفيتي لأفغانستان

كان جيلنا يشعر بالانتماء الشديد للأمة الإسلامية، فوطن المسلم الحق عقيدته، وأي بلد مسلم هو بالضرورة وطن لنا، وربما كان ذلك سببًا ليتسع تضامننا مع كل شعوب العالم الإسلامي ولا يقف عند قضيتنا المركزية؛ فلسطين. كنا نرى أن فلسطين أرض إسلامية لا يجب التفاوض عليها أو المساومة بل يجب تحريرها من البحر إلى النهر، وأن واجبنا الذهاب إليها والتطوع من أجل تحريرها، وأنه لا يمنعنا عنها إلا الأنظمة الحاكمة، وقد ظهرت هذه العقيدة جليًا مع الغزو السوفيتي الغاشم لأفغانستان المسلمة.

في نهاية عام ١٩٧٩ اجتاحت الجيوش السوفيتية أراضي أفغانستان لدعم الحكومة الشيوعية في كابول، فقمنا لنصرة إخواننا في تعاطف فطري وبتصور بسيط بل ساذج لمفهوم الجهاد وإقامته. كنا – خاصة القيادات الطلابية – نتصور أن المسألة سهلة لا تبعد كثيرًا عمّا فعله الإخوان المسلمون في فلسطين في حرب عام ١٩٤٨.

في البداية بدأنا في حملة واسعة للتعريف بالقضية فعقدنا المؤتمرات والندوات وأصدرنا البيانات والإصدارات الخاصة وكانت كلها تدعو الأنظمة لأن تفتح أبوابها للمتطوعين ليس للذهاب إلى فلسطين فقط وإنما إلى أفغانستان أيضًا، لقد توزعت جهودنا بين فلسطين وأفغانستان ولم تعد فلسطين وحدها محور الاهتمام.

نظّمنا عددًا من الفعاليات الشعبية ومنها مؤتمرات في الأزهر الشريف دعونا فيها الشباب للتطوع من أجل الجهاد وشارك في هذه الحملة عدد من العلماء والشيوخ في مقدمتهم عمر التلمساني ومحمد الغزالي وأحمد المحلاوي وحافظ سلامة.

لكن الذي حدث أن ما فعلناه لم يكن يعدو الدعم المعنوي لنصرة أفغانستان عبر العمل الإغاثي والإعانات، وتنظيم الفعاليات التضامنية مع الشعب الأفغاني المسلم، ونشر الوعي عبر الندوات والمؤتمرات الجماهيرية والمجلات والإصدارات للتحذير من خطر الشيوعية على الإسلام والدعوة إلى التصدي للخطر الشيوعي، واستمر ذلك إلى عام ١٩٨٤ الذي ظهرت فيه إمكانية المشاركة الفعلية بالجهاد، فقد سمحت الحكومات للشباب بالسفر للجهاد في أفغانستان! لقد كان واضحًا أن أمريكا أعطت الضوء الأخضر لهذه الحكومات (خاصة في مصر والسعودية) بفتح أبواب الجهاد للشباب!

في هذا الوقت دار نقاش طويل داخل قيادة الإخوان حول الشكل الأنسب لدعم الشعب الأفغاني وقضيته؟ وبعد أخذ ورد استقر الرأي على أن تقتصر جهود الإخوان على الإغاثة والدعم المالي والتعريف بالقضية ونشرها، وكان هناك سببان لعدم المشاركة العسكرية، أولهما أنها كانت رغبة عدد من قادة المجاهدين ممن لنا بهم صلات مباشرة مثل عبد رب الرسول سيّاف وبرهان الدين ربّاني، فقد أكدوا لنا أنهم لا يحتاجون أفرادًا أو جنودًا، ولكنهم بحاجة إلى المال والمؤونة. أما السبب الثاني والذي لا يقل أهمية فهو عدم ثقتنا في الأنظمة العربية التي فتحت أبوابها أمام الشباب للجهاد، فقد كنا نشعر أن ذلك العمل ليس لوجه الله، وأن هذه الأنظمة لو كانت حريصة على الإسلام لكان أولى بها أن تعمل له في بلادها، وأنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن أذنت لها أمريكا. وأنها من السهل أن تنقلب على أولئك الشباب الطيبين بعد ذلك، وهو ما حدث بالفعل!

كان عدد من الإخوان القدامى يؤيدون المشاركة العسكرية والعمل الجهادي، لكن الاتجاه العام - الذي حسم موقف الجماعة - كان عدم المشاركة العسكرية والاكتفاء بالدعم الإغاثي والإنساني والمعنوي، لقد كانت معسكرات الأفغان ممتلئة بالشباب المحب للجهاد والراغب في الاستشهاد من كل مكان، كما رأينا بأنفسنا مدى حب الشاب الأفغاني لدينه حتى وإن كان كثير منهم لا يصلي تكاسلاً وليس إنكارًا لها، وأنهم مستعدون للموت في سبيل تحرير الوطن المحتل.

وللتاريخ أقول إن أول مسئول عن الملف الأفغاني في الإخوان كان الأستاذ كمال السنانيري رحمه الله، ولكن لم يكن دوره ظاهرًا في البداية خاصة أنه لم يمكث كثيرًا حتى اعتقل في أحداث سبتمبر ١٩٨١ ثم استشهد من جراء التعذيب في المعتقل وكان في الزنزانة الملاصقة لي بالمعتقل، ثم تولى المسئولية بعده عن ملف أفغانستان الدكتور أحمد الملط وكنت مساعده، ومعه كانت أول زيارة قمت بها إلى أفغانستان عام ١٩٨٤، ومنها تفقدت تجمعات اللاجئين في بيشاور وكويتا.

بدأنا عملنا بجمع التبرعات المالية وكانت ضخمة جدًّا، وكذا جمع الإعانات ومواد الإغاثة ونقلها إلى أفغانستان مع تنظيم قوافل الأطباء الراغبين في التطوع. وأذكر أن مسجد صلاح الدين في منطقة المنيل كان مركزًا لجمع التبرعات العينية، ومن إقبال الناس على دعم القضية الأفغانية تحول المسجد إلى مخزن كبير، وكنا نجمع ونشحن هذه المواد في بواخر إلى كراتشي بباكستان ثم تنقل لتجمعات اللاجئين في بيشاور وكويتّا.

وأذكر أن مما أثار انتباهي في زيارتي الأولى لأفغانستان أن النساء الأفغانيات كن على درجة من الحياء والمحافظة حتى إنهن يفضلن الموت على أن يقوم بعلاجهن أو الكشف عليهن رجل، وكانت الواحدة منهن إذا أصيبت بمرض بسيط قد تموت دون علاج لأنها ترفض أن يعالجها رجل، وكانت تلك أزمة كبيرة لأن كل بعثات الإغاثة تعتمد على الأطباء الرجال، وقد دفعنا ذلك لأن نقيم أول مستشفى للنساء في بيشاور. وكان يعتمد تمامًا على الطبيبات المصريات المتطوعات اللاتي أتين مع أزواجهن الأطباء، فيما كان طاقم الممرضات والإداريات من الباكستانيات لضرورة تخفيض النفقات المادية.

كانت هناك جهات إسلامية كثيرة لعبت دورًا مهمًّا في أعمال الإغاثة أذكر منها مستشفى الهلال الأحمر الكويتي. وكان مما يحزن أن منظمات الإغاثة الأوربية والأمريكية كانت تصرف معوناتها فيما لا يفيد، فمثلاً إذا كان حجم المعونة مليوني دولار يصرف ثلثاها على الأمور البحثية وما شابه ذلك دون استفادة الشعب اللاجئ من هذه المعونات، أما هيئات الإغاثة الإسلامية فكانت تصرف معونتها كاملة على

أعمال الإغاثة... لقد كانت أحوال اللاجئين بالغة السوء، وكان هناك نحو مليوني لاجئ في بيشاور يعيشون في العراء أو في المخيمات؛ هذا غير حوالي مليون في كويتّا بالإضافة إلى من كانوا في إيران... ولكن عملنا اقتصر على المتضررين في باكستان.

الفصل السابع

أحداث فاصلة في عهد السادات

يمكن القول إن مصر كانت تعيش أجواء انفتاح وحرية إلى أن بدأ السادات مشروعه للسلام مع الصهاينة، وإن العلاقة بين الحركة الإسلامية والسادات كانت طبيعية ولكنها تأزمت تمامًا مع بدء مشروع السلام إلى أن وصلت للصدام حين قرر السادات إقامة علاقات رسمية مع الكيان الصهيوني.

حين بدأ السادات مشروعه للصلح شعرنا بالتغير نحو الأسوأ في طريقة معاملته مع الحركة الإسلامية، وبعد زيارة القدس اتضحت الأمور أكثر، وكان أول ما لاحظناه هو تغير أسلوب تعامل إدارة الجامعة معنا، كان الدكتور صوفي أبو طالب نائب رئيس الجامعة حتى تخرجي سنة ١٩٧٧، وكان لا يرد لي طلبًا بصفتي رئيس اتحاد الطلاب، ولكن سياسته معنا أخذت تتغير فيما بعد، فبدأ يعيق تحركاتنا ويعرقل عملنا في الجامعة ... وأذكر أنني حين كنت في سنة الامتياز أصدر تعليمات بأن يكون لي حضور وانصراف في المستشفى الجامعي، ولا أظنها كانت تعليماته الشخصية.

في هذه الفترة بدأ التضييق على الأنشطة والمعسكرات الطلابية، بل بدأت تصادر المطبوعات الطلابية التي كانت تمر فيما قبل بيسر وسهولة.

وبعد توقيع معاهدة السلام مع الكيان الصهيوني سنة ١٩٧٩ وبدء حملة قوية من الحركة الإسلامية ضدها بدأ الصدام يحتدم وبدأت تسفر سياسة التضييق الأمني عن نفسها، فكان هذا دليلًا على تغير الأجواء بين السادات وبين الحركة الإسلامية. على

أن سياسة السادات مهما وصلت من سوء وتضييق فلم تكن تقارن بما حدث قبله ولا بعده.

لقد بدأت في هذه الفترة سياسة التضييق على معسكرات الجماعة الإسلامية، وهذه السياسة وإن كنا رأيناها بعد اغتيال جماعة شكري مصطفى (أطلق عليها الإعلام: التكفير والهجرة) للشيخ الذهبي - رحمه الله - إلا أنها اشتدت تدريجيًّا بعد مشروع السادات للصلح مع إسرائيل وما تولد عنه من رفض إسلامي واسع للسادات وسياساته.

بدأنا نواجَه بعراقيل إدارية تضعها إدارة رعاية الشباب وتضييق من مشرفي المدن الجامعية تتمثل في التشديد المبالغ فيه في الإجراءات ووقف كل التيسيرات التي كانت تمنح لنا في السابق... وكذلك تقليص الوجبات التي تقدم لطلاب المعسكرات وضعف الخدمات عمومًا... كما بدأت تثار الشائعات كل سنة حول النية في إلغاء المعسكرات أو ضربها واعتقال السلطات لمن فيها!

وكان عام ١٩٧٨ أول عام تواجه فيه الجماعة الإسلامية تضييقًا شديدًا في ترشيح أعضائها للانتخابات الطلابية واستبعادهم من قوائم الانتخابات. ثم حرمان الاتحادات التي يفوزون فيها من الدعم، وكانت جامعة عين شمس من أولى الجامعات التي استبعد فيها طلاب الجماعة الإسلامية من الانتخابات الطلابية.

وفي عام ١٩٧٩ أصبحت المواجهة سافرة وبدأ الصدام باعتقال عشرة طلاب من الجماعة الإسلامية في اتحاد طلاب جامعة المنيا، منهم الأخوان محيي الدين عيسى وأبو العلا ماضي وكان رئيسًا لاتحاد طلاب الجامعة ونائبًا لرئيس اتحاد طلاب الجمهورية. وصدرت ضد هؤلاء العشرة قرارات بالفصل والحرمان من الدراسة... وكانت هذه أول مواجهة مباشرة من النظام للجماعة الإسلامية في الجماعة.

وتصاعدت المواجهة في عدد من الجامعات الأخرى بغرض ضرب النشاط الإسلامي حتى وصلت إلى الضربة الكبرى التي تمثلت في إصدار الدولة للائحة طلابية جديدة للقضاء على الحركة الطلابية ومحاصرتها... فصدر القرار الجمهوري

رقم ٢٦٥ لسنة ١٩٧٩ الذي يلغي القرار الجمهوري رقم ٢٣٥ لسنة ١٩٧٦... وقد جمدت اللائحة الجديدة الاتحادات الطلابية المنتخبة وجمدت أموالها وأغلقت مقارها وحظرت اجتماعاتها.

وتصاعدت الضربات تدريجيًّا فكان عام ١٩٨٠ آخر الأعوام التي استطعنا فيها إقامة المعسكرات الإسلامية حيث أقمنا معسكرًا منتصف العام – في فصل الشتاء – في قرية درنكة بمحافظة أسيوط وكنا قد اعتدنا على التخييم فيها لقربها من الجبل واتساع الأرض والفضاء بها، كما أقمنا معسكرًا في إجازة الصيف في شاطىء أبو يوسف بالإسكندرية على أرض تابعة لرجل الأعمال الشهير المهندس طلعت مصطفى كانت قريبة من الشاطئ.

في عام ١٩٨١ ألغيت كل المعسكرات الطلابية بعد أن بدأ السادات يصعد من مواجهته ليس معنا وحدنا فحسب بل مع كل القوى السياسية.

ربما كانت واقعة الصدام الشهيرة بين السادات وبين الأستاذ عمر التلمساني أهم المؤشرات على أن العلاقة بين السادات والحركة الإسلامية سارت في طريق مسدود، وأن الصدام قادم ولا يبقى عليه إلا القليل، فقد تعمد السادات في لقائه الشهير الحديث إلى الأستاذ عمر بأسلوب مهين على غير عادته، وزاد من الإهانة أن اللقاء كان يبثه التليفزيون كعادته في نقل اللقاءات الفكرية التي كان ينظمها السادات. يروي الأستاذ عمر التلمساني، الواقعة في كتابه «أيام مع السادات» فيقول:

«قمت بزيارة إلى وزير الثقافة والإعلام منصور حسن في مقر عمله بناء على طلب الوزير... وحاول أن يقنعني بحضور اللقاء الفكري للرئيس السادات بالإسماعيلية يوم ٢٨ رمضان «عام ١٩٧٩» وفي النهاية ومع إلحاح الوزير وافقت على الحضور.

وعندما وصلت إلى مكان الاجتماع جلست في آخر الصفوف، وبعد دقائق جاءني المشرف على تنظيم الحفل، وألحّ وأصرّ على أن أجلس في الصف الأول، وقلت إن ذلك تكريمًا منهم لي فتفاءلت خيرًا، ولعل هناك بدءًا لتفاهم جديد، ولكن هذه الجلسة كانت لغرض كشفت عنه أحداث الحفل، فقد أجلسني منظم الحفل في

الصف الأول على كرسي، لو مددت منه خطًا مستقيمًا لوجدته ينتهي عند الكرسي الذي يجلس عليه السادات في المنصة، وكأنهم أرادوا بذلك أن أكون أقرب ما أكون من السادات عندما بدأ سيل اتهاماته المنهمر يترامى من حولي شمالًا وجنوبًا ويسارًا ويمينًا، رجاء أن يصيب مني مقتلًا. تهم لي وللإخوان لا حصر لها بتخريب وعمالة وإثارة للطلبة، والعمالة والفتنة الطائفية، وكل ما في أجواء الخيال والانسجام مع الجو الشاعري الذي كنا نجلس فيه، بين أحضان حدائق الإسماعيلية الندية الوارفة الظلال، تهم من النوع الذي اعتاد السادات أن يلقيها على كل ما لا يرى فيه نابغة الزمان، وباتعة العصر والأوان. وطال السباب وضاق الصدر، ونفد الصبر، واستثارتني عاطفة الحب للإخوان، فقاطعته قائلًا: «إن هذا كلام يحتاج إلى ردود». فأجابني: «لما أخلص كلامي رد كما تشاء»، وظل سادرًا في غلوائه، وغاب الحاضرون في أنفسهم، والذين سمعوه على أجنحة الأثير أنه كان في نهاية كل مقطع من كلامه يقول: «مش كده يا عمر؟!»، استنكر الشعب كله، حتى بعض من كان معه، أن يخاطبني باسمي مجردًا، غير مراع في ذلك حرمة السن، ولا طهارة شهر الله، ولا الصفة التي منحتني إياها الجامعة عندما أعطتني ليسانس الحقوق، ولا حرمة المنصب الذي أشغله، والذي يجب أن يزدان بكل لياقة وتهذيب، ولكن العيار انفلت، والبيبة صهللت، والخيال انفتح ولم يكن في كل عيب من العيب الذي يحلو له دائمًا أن يردده، وإني لأحمد الله على أن أسلوبه لم يسؤني كما أساءه، ولم ينل مني كما نال منه، أليس البغي مرتعه وخيم؟! وكان طوال مدة حديثي يشد الأنفاس الملهلبة، من بيبته الأنيقة، حتى ظننت أنها تدانيه بكل ما أراد، وتوحي إليه بما شاء من نسج الخيال، كان الله في عوني وعونه... عوني على الصبر، وعونه على الابتداع، وما إن انتهى من حديثه، حتى وقفت أمام الكرسي الذي كنت أجلس عليه، ولم يكن أمامي مذياع ولا مكبر للصوت ولم يكن في ذهني رد معد، ولكن الله ألهم منظمي الحفل أن يأتوني بمكبر للصوت، أتحدث من خلاله، ولعلهم حرصوا من وراء ذلك أن يسمعوا العالم اعتذاراتي وأسفي وحسرتي على ما بدر مني، فيبعث ذلك الراحة إلى صدره المثقل بعدوانه للإخوان المسلمين، ولكن أراد عمرًا وأراد الله خارجة، فكان في تصرفهم ما أوضح للناس جميعًا أن من بين

مَن في مصر مَن يقول للظالم لقد جُرت وتعديت... فنّدت كل التهم التي وجهها إليَّ وإلى الإخوان واحدة واحدة، بالدليل والبرهان وختمت ردي بالعبارات الآتية: «لو أن غيرك وجه إليَّ مثل هذه التهم لشكوته إليك، أما وأنت يا محمد يا أنور يا سادات صاحبها، فإني أشكوك إلى أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، لقد آذيتني يا رجل وقد ألزم الفراش أسابيع من وقع ما سمعت منك»، وأشهد صادقًا أن البيبة ارتعشت بين شفتيه، وقال: «إنني لم أقصد الإساءة إلى الأستاذ عمر ولا إلى الإخوان المسلمين... اسحب شكواك بقى».. فأجبته بأنها «رفعت إلى من لا أستطيع استرداد ما وضعته بين يديه»... كانت أول مرة يخاطبني فيها بكلمة أستاذ، طوال خطابه الممل الطويل!! وانتهى الاجتماع وأرسل لي في أعقابه فورًا وزير الأوقاف ومنصور حسن وزير الثقافة والإعلام، يبلغاني أمام من كان موجودًا، أن سيادة الرئيس لم يقصد الإساءة إليَّ، وأنه سيحدد موعدًا لمقابلتي.

ويبدو أن تسارع الأحداث وقسوة تيارات المعارضة في نقدها للسادات ومشروعه للصلح مع إسرائيل - على غير ما كان يتوقع - جعلاه يصبح حادًّا عصبي المزاج، مما أدخله في صدام مع كل القوى السياسية لم يبق له بسببه صديق.

في هذه الفترة وقعت أحداث الفتنة الطائفية بمنطقة الزاوية الحمراء في القاهرة سنة ١٩٨١، ورغم أجواء الاحتقان والتوتر تفاعل الإخوان المسلمون إيجابيًّا وكونوا سريعًا فريقًا للمصالحة بين المسلمين والأقباط ضم الأساتذة: عمر التلمساني ومصطفى مشهور وحافظ سلامة وأحمد المحلاوي وكنت عضوًا بهذا الفريق معهم... ونجحت المصالحة في وأد الفتنة التي لم يكن لها أسباب حقيقية وإن تفاعلت بصورة غريبة.

فقد بدأت الأحداث بسيطة بـ«خناقة» بين مسلم ومسيحي، فتم الاعتداء على مسجد بالزاوية الحمراء وكان الرد بالاعتداء على المسيحيين في المنطقة مما أدى إلى سقوط قتلى من الطرفين، وبدت الفتنة مرشحة للتفاقم أكثر من ذلك بعدما امتد التوتر والصدام إلى صعيد مصر حيث قام شباب الجماعة الإسلامية بمدينة المنيا بجمع الطلاب الأقباط في المدينة الجامعية واحتجزوهم في غرفهم، ووقتها اتصل

وزير الداخلية بالأخ حلمي الجزار باعتباره أمير أمراء الجماعة الإسلامية، ورجاه التوجه إلى المنيا وحل المشكلة، فتجاوب الأخ حلمي معه ونجح في إنهاء الأزمة والإفراج عن الطلاب الأقباط.

والحقيقة أنني أحسست وقتها أن هناك أسبابًا غير طبيعية للفتنة، وكنت أشعر مما يحدث- مثلًا - في الصعيد بين شباب الجماعة والأقباط أن هناك جهة ما داخل النظام تريد أن تشعل الدنيا ولا تنطفئ النار... مثلًا كان يصلنا أن بعض الشباب كانوا يهاجمون من يرونه يسير بصحبة فتاة في الشارع، فكنا ننصحه بالتصرف القانوني وتحرير محضر في قسم الشرطة، ثم نسمع بأن هذه المحاضر تحفظ ولا تتصرف فيها الشرطة ولا تأخذها على محمل الجد رغم خطورة الموضوع، وهو ما كان يعطي الفرصة لزيادة تطرف الشباب واتجاههم أكثر إلى العنف، خاصة أن الشرطة لم تكن - وقتها - تتحرك إذا ما جاءها شاب قبطي يريد الإبلاغ عن واقعة اعتداء ضده ولا تقوم معه باللازم ضد من قام بالاعتداء... وأتصور أن هذه الجهات داخل النظام كانت تتعمد ترك الشباب القبطي يُضرب ويُعتدى عليه دون أن تتحرك رغبة منها في جره إلى الرد بالمثل ومن ثَمَّ دخول البلد في دوامة عنف... لقد بقيت أجهزة الدولة متفرجة أمام أحداث الزاوية الحمراء، وكان الشباب المسلم يأتي إلينا - في بعض الأحيان - مستغيثًا من أن بعض الشباب الأقباط يحملون السلاح دون أن تتحرك الدولة لمنعهم، وكانوا يطلبون منا السماح لهم بحمل السلاح لمواجهة الأقباط المتطرفين!

لقد ظلت الفتنة مشتعلة ثلاثة أيام كاملة في الزاوية الحمراء دون تحرك جاد لاحتوائها وكأنما كان هناك - داخل السلطة - من لا يريد وأدها أو التحرك لنزع فتيلها.

والآن أتساءل: هل كان هناك - داخل النظام - من يسعى لاستدراج الحركة الإسلامية للعنف والطائفية لضربها بين يدي اتفاقية كامب ديفيد وبيع فلسطين؟! أتصور أن هذا التفسير يبدو الأكثر قبولًا عندي... وأتصور أيضًا أنه كان حاضرًا في ذهن الأستاذ عمر التلمساني الذي قاد مبادرة المصالحة لدرء هذه الفتنة لتفويت الفرصة على النظام.

ورغم ذلك يمكن القول إن السادات استغل - فعلًا - حالتي التوتر والاحتقان اللتين أدخل فيها البلاد لضرب الحركة الإسلامية وهو ما كانت إشارته قراره بإغلاق مجلة الدعوة لسان حال الإخوان عام ١٩٨٠ مرة أخرى دون رجعة، وقد خطب - وقتها - خطبة هاجم فيها الحركة وأشاع فيها مناخًا من التوتر، وأظن أن السبب الحقيقي لغضبه كان معارضة الإخوان لاتفاقية كامب ديفيد، وهو الموقف الذي أراد أن يستغله السادات لتحجيم التيار الإسلامي الآخذ في النمو والتضخم والتحول إلى تيار جارف.

ورغم أن مبادرة السلام كانت خطأ بل سقطة كبرى للسادات في رأي الإخوان أو غيرهم من الاتجاهات السياسية الأخرى؛ إلا أن الموقف الذي واجهته به المعارضة كان بالغ القسوة والعنف وكان مسئولًا إلى حد كبير عن خروجه عن وعيه وفقدانه السيطرة على أعصابه... فعلى صفحات مجلة الدعوة وفي المؤتمرات وداخل الجامعة جرى الهجوم على السادات واتهامه بالعمالة والخيانة بعدما قال إن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا.

وبلغ عنف الهجوم على السادات أقصاه من الشيخ أحمد المحلاوي في الإسكندرية الذي انتقل إلى الهجوم على زوجته السيدة چيهان واتهامها باتهامات قاسية!

كان صعبًا علينا ألا نهاجم السادات أو نتهمه بالخيانة والعمالة؛ لكن الإخوان الكبار كانوا أعقل منا، فلم يتعرض أحد منهم لشخص السادات أو زوجته، بعكس الإسلاميين المستقلين الذين كان هجومهم عليه عنيفًا وشخصيًّا كما فعل الشيخ حافظ سلامة أو الشيخ محمود عيد والشيخ أحمد المحلاوي في الإسكندرية.

ورغم رفضي لمبادرة السادات جملة وتفصيلًا إلا أنني أذهب إلى أن هذا الإقدام على الصلح مع اليهود والصداقة معهم بعد هذه العداوة والحرب الكبيرة بيننا وبينهم لم يكن من صنع السادات فقط بل بضغوط خارجية شديدة عليه.

تسارعت الأحداث في مصر، وبدا أن التوتر سيمتد وأن الصدام بين السادات والمعارضة خاصة الإسلامية سيمضي إلى القطيعة... وفي أوائل سبتمبر كنت أزور معسكرًا طلابيًّا إسلاميًّا في العاصمة الإيطالية روما، وفي يوم الثلاثاء الموافق ٣ سبتمبر ١٩٨١ كنت بالمعسكر، وذكر لي أحد الأشخاص أن هناك حديثًا في دوائر سياسية وأمنية عن أن السادات أعد قائمة اعتقالات سيقوم بها قريبًا، وأكد لي أنه من المرجح وجود اسمي بها، وأنه من المرجح أيضًا أن السادات سوف يعلن عنها مع الخطاب الذي سيلقيه يوم السبت ٧ سبتمبر.

وقد طلب مني بعض الإخوة عدم العودة إلى مصر، ولكنني رفضت وقلت لهم: إن «سجن» أبو زعبل أفضل من البقاء خارج مصر!

وأتصور أنه كانت هناك اختراقات أمنية في النظام الحاكم تسببت في معرفة أمر هذه القوائم، حتى إن الإخوان في مصر كانوا يعلمون بها، وهو ما سمح بأن يسافر الأستاذ مصطفى مشهور قبل اعتقاله بأيام، وقد قابلته في هذا المخيم - في روما - وكان هو في طريقه إلى فرنسا لإلقاء محاضرة، وقد أخبرني أنه لن يعود إلى مصر في الوقت الراهن استجابة لنصيحة الأستاذ عمر التلمساني نظرًا لتوتر الأوضاع، وأنه سيبقى في فرنسا حيث تقيم ابنته مع زوجها الأخ أحمد نشأت - وكان معيدًا وقتها بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية الذي يقضي منحة الدكتوراه هناك.

وحين زرت الأستاذ عمر أكد لي علمه بأن هناك اعتقالات في الأيام المقبلة، وفي ليل يوم الأربعاء ١١ سبتمبر كانت قوات من أجهزة الأمن تلقي القبض عليَّ من منزلي ضمن نحو ١٥٠٠ آخرين كانوا ضمن قائمة التحفظ الشهيرة تم اعتقالهم آنذاك.

نقلوني إلى سجن استقبال طرة وهو سجن كبير جدًّا مكون من مبنيين كل منهما مكوّن من أربعة أدوار وكل دور به ٢٠ زنزانة سعتها ١٠ أفراد... وكان سجنًا فسيحًا ونظيفًا بناه السادات في نفس التوقيت الذي تم تصويره وهو يهدم المعتقلات والسجون... وكانت هذه أول اعتقالات يشهدها السجن... وكنا أول من افتتح هذا السجن.

في البداية لم أكن أعلم أن هناك معتقلين غيري في المكان نفسه حتى فوجئت بأن هناك العشرات بل المئات معي من جميع التيارات والرموز السياسية والفكرية في مصر، فرأيت حافظ سلامة وأحمد المحلاوي ومحمد حسنين هيكل وفؤاد سراج الدين والأستاذ عمر التلمساني والدكتور عصام العريان، ورموز السياسة والدين في مصر.

في اليوم التالي لاعتقالنا فتحت الزنازين وكانت المعاملة حسنة، وكان معي في نفس الزنزانة الدكتور محمد حلمي مراد وزير التعليم السابق والأستاذ الشاعر جمال فوزي - رحمه الله - والشيخ حافظ سلامة والأستاذ لاشين أبو شنب والدكتور محمد السيد إسماعيل أستاذ الجراحة بطب عين شمس.

كان الدكتور محمد حلمي مراد رجل قانون بارزًا فأراد أن يعرف سبب الاعتقال، وكان في حيرة من أمره لأسباب الاعتقال ومبرراته القانونية، فلم تكن مصر قد دخلت وقتها نفق الطوارئ البغيض الذي عاشته طوال عصر مبارك، وكان الدكتور مراد يحاول تفسير الأمر قانونيًّا خاصة أنه لم يكن هناك قرار من النيابة، وهداه فكره إلى أن استنتج أنه من الممكن أن تقبض الشرطة على أي شخص لمدة أربع وعشرين ساعة، ومن ثَمَّ توقع أنه طالما أن اليوم التالي هو الجمعة (إجازة) وأن الرئيس السادات سيخطب يوم السبت، فإنهم سيفرجون عنا بعد الخطاب مباشرة وسنرجع إلى بيوتنا عصر السبت بعد الخطاب مباشرة، خاصة أنه لم يكن هناك إعلان حالة طوارئ حيث كان السادات قد أوقفه قبل ستة أشهر.

كان الدكتور حلمي مراد يتعامل مع الأمر بعقلية قانونية... وكان معنا الأستاذ جمال فوزي الذي قضى سنوات عمره مع الإخوان في السجون فكان يداعبه قائلاً: «يا دكتور خلي بالك إذا كنت هنا معنا فلا تفكر في الخروج إلا بعد ٢٠ سنة!».

كان قائد السجن الضابط محسن السرساوي أول مأمور للسجن والذي أصبح بعد ذلك رئيسًا لشرطة النجدة، وكان رجلًا مهذبًا يمرّ بنفسه على المعتقلين يتفقدهم ويسلم عليهم فردًا فردًا، وقد سأله الدكتور حلمي مراد آنذاك: بأي تهمة تم اعتقالنا؟

فرد عليه بطيبة: والله يا دكتور حلمي أنا عامل زي أمين المخزن يأتون لي بأشياء ويطلبون مني أن أحفظها فيه! فقد جاءوا بكم وأنتم أمانة عندي حتى يأتي جديد، ولكني لا أدري لماذا جئتم هنا.

ألقى الرئيس السادات خطابه يوم السبت ولم نسمعه بالطبع بسبب كوننا معزولين تمامًا عن العالم، وانتظر الدكتور حلمي مراد الخروج الذي لم يحدث. لم نكن نعرف سبب اعتقالنا حتى أخذونا إلى المدعي الاشتراكي، وهناك علمنا أنه قد قبض علينا بموجب قانون المدعي الاشتراكي، وهو قانون حماية القيم من العيب، وعلمنا أننا متحفَّظ علينا. وبعد حوالي أسبوعين نودي على بعض السياسيين مثل هيكل وفؤاد سراج الدين وحلمي مراد وتم نقلهم إلى ملحق طرة، ونقل الأستاذ عمر التلمساني إلى مستشفى ليمان طره، وكان الغرض تقريبًا عزلهم عنا، وظل بقية المعتقلين، وظللنا على تلك الحال حتى يوم السادس من أكتوبر ١٩٨١.

الفصل الثامن

اغتيال السادات ودخول السجون

استقبل اغتيال السادات استقبالًا حافلًا وخر الشيخ حافظ سلامة ساجدًا فور سماع النبأ، وحدثت حالة هرج ومرج في السجن فحاول بعض المتحفظ عليهم كسر باب السجن والخروج، وكان مأمور السجن يناشدهم الهدوء، فتدخل بعض كبار الإخوان مثل الحاج أحمد حسنين والأستاذ كمال السنانيري لتهدئة الوضع فاستقرت الأمور بعدها.

وبعد حادث الاغتيال بدأت موجة اعتقالات جديدة وبدأت أفواج جديدة تأتي علينا وعلمنا منهم كيف تم الاغتيال، وكان من المعتقلين صاحب مقهى قبض عليه لأنه حين علم بنبأ الاغتيال أخذ يوزع مشروبًا على الناس، مما عكس فرحة الناس بذهاب السادات...

وكان مما أثار الناس وجعلهم يفرحون باغتياله أنه في خطابه سبّ حلمي الجزار أمير الجماعة الإسلامية وسب الشيخ أحمد المحلاوي الذي قال عنه: «هو دلوقتي مرمي في السجن زي الكلب!!» كما قام باعتقال رموز الدعوة الإسلامية المحبوبين بين الناس.

وأعتقد أن مقتل السادات لم يكن عن طريق تنظيم محكم كما قيل، وإنما هو غضب بعض الضباط في الجيش الذين لم يعجبهم صلح السادات مع الصهاينة، فلم يكن تنظيمًا بمعنى كلمة تنظيم ولكن هم مجموعة متدينة غاضبة، كانت لهم علاقة

ارتباط فكري بمحمد عبد السلام فرج صاحب كتاب «الفريضة الغائبة» الذي يدعو للتغيير بالقوة وكان يؤمن بالعنف، والدليل على أنه لم يكن تنظيمًا أن بعض الشباب كان يعلم أن السادات سوف يقتل في ذلك اليوم.

مع الظواهري في سجن القلعة

عقب اغتيال السادات تم نقلنا إلى سجن أبو زعبل في الثامن من نوفمبر، وحتى هذا التاريخ لم يكن يسمح لنا بزيارة الأهل أو الاتصال بهم ولا حتى بدخول الملابس أو الأطعمة من خارج السجن، ولم يكن يسمح لنا حتى براديو نتابع منه العالم خارج السجن.

وحتى يتم النقل بهدوء أوهمنا المسئولون في الداخلية أننا سوف نخرج، ولم يخبرونا أننا سننتقل إلى سجن آخر، وكان أبو زعبل ممتلئًا بالمعتقلين إثر حادث الاغتيال، وهناك تغيرت المعاملة تمامًا إلى النقيض فأصبحت بالغة السوء، وكان أول ما صادفنا عند دخولنا أننا وجدنا عمليات تعذيب بشعة للمعتقلين! ثم عزلنا في زنازين خاصة بنا بعيدًا عن معتقلي واقعة الاغتيال.

وبعد فترة قصيرة نقلت من السجن ومعي الأخ عصام العريان، أنا لسجن القلعة وهو إلى سجن استقبال طرة، وظللت شهرًا في القلعة في تعذيب وتحقيقات، وكان سجن القلعة خاصًا بأمن الدولة يتم فيه الاستجواب والتحقيق، ولما لم يتحمل الأعداد الكبيرة، تم إعداد سجن استقبال طرة ليكون هو السجن الخاص بأمن الدولة.

وفوجئت أن الزنزانة المجاورة لي بالقلعة كان بها الدكتور أيمن الظواهري، وكان معنا بالكلية، ولم يكن له أي نشاط ظاهر، كما لم يكن أيضًا من الطلاب النشطين أو المشاكسين... كان متدينًا هادئًا ولم يكن يشارك حتى في المظاهرات التي كانت تعج بها الجامعة وقتها.

كان الحديث محظورًا بين المعتقلين، ومن يضبطون في حديث يتعرضون لعقاب شديد، فكنا نتحايل على ذلك بأن نحدث بعضنا بعضًا بما يشبه تلاوة القرآن، حتى

نُعمّي على الشاويشية والسجّانين فيظنون أننا نقرأ القرآن، فمثلًا كنت أقول: «يا أيها الأخ فلان، ماذا فعلت اليوم في النيابة رضي الله عنك؟!». فيجيبني كما لو كان يقرأ القرآن: «سألوني عن كذا وكذا والحمد لله رب العالمين...!». وهكذا.

وفيما كنت أتحدث مع أيمن الظواهري عن سبب القبض عليه، إذا به يخبرني أنه قبض عليه بسبب كمية كبيرة من السلاح كان يخبئها في منزله بالمعادي!! فكانت تلك مفاجأة كبيرة بالنسبة لي من هذا الرجل هادئ الطباع الذي لا يبدو عليه أي ميل للعنف... وكانت مفارقة أخرى أن الظواهري أنكر في التحقيقات أي علاقة له بالإخوان باعتبار أنهم جماعة مهادنة للسلطة!

تم التحقيق معنا ضمن آلاف المعتقلين، وفي جلسات التحقيقات الطويلة ظهر أن رجال التحقيق كانوا يحاولون أن يتعرفوا منا على أمثال أيمن الظواهري هؤلاء المجهولين الذين فجّروا الأحداث وظهروا فجأة في صدارة المشهد.. وكان أيمن الظواهري يرفض هو وزملاؤه في التنظيم أن يتحدثوا مع أحد يعلمون أو حتى يظنون أنه من الإخوان المسلمين.

استمرت التحقيقات معنا وكانت تدور كلها حول أنشطتنا وعلاقاتنا حتى نقلت إلى سجن استقبال طرة في مايو ١٩٨٢، وفُتحَ باب الزيارة، وكانت فترة تحقيقات واستجوابات قاسية حيث كان السجن يخضع لسيطرة جهاز أمن الدولة، وكانوا يرسلون للنيابة كل من يرون أنه عضو في تنظيم مسلح أو مرتبط به.

استشهاد الأستاذ السنانيري

في سجن استقبال طرة تعرضنا للتعذيب والإساءة كثيرًا، لكن أكثر ما أصابنا هو قتل الأستاذ كمال السنانيري ، والذي كان من أكبر الإخوان سنًّا حين تم القبض علينا في سبتمبر ١٩٨١، وكان له دور كبير في تثبيتنا بعد دخولنا المعتقل، وكان له دور في ضبط اتزاننا بعد الصدمة التي أفقنا عليها بعدما كنا نتصور أننا قاب قوسين أو أدنى من إقامة الدولة الإسلامية! وكان له الفضل في توعيتنا بإعداد أنفسنا إعدادًا جيدًا لتحمل

فترة السجن التي يمكن أن تطول بنا، وبعد مقتل السادات وزيادة جرعة التعذيب كان الشهيد السنانيري من أكثر من طالهم التعذيب، وكنت أسمعه يصرخ مستجيرًا بالله من شدة التعذيب وبشاعته، فقد كانوا يصبون عليه العذاب للضغط عليه ظنًّا منهم أنه هو المسئول عن سفر الشباب المسلم إلى أفغانستان، وقد كان - رحمه الله - مسئولًا عن ملف القضية الأفغانية.

وفي أحد الأيام - ربما يوم ٤/ ١١/ ١٩٨١ - كان الوضع غريبًا داخل السجن بما يوحي بحدوث شيء غير عادي، ولم يلبث أن جاءني الشاويش وقال لي: إن الرجل العجوز الذي في الزنزانة المجاورة لك قد مات! وكان قائد السجن في هذا الوقت فؤاد علام ضابط مباحث أمن الدولة المعروف ورئيس ما كان يعرف بقسم مكافحة النشاط الديني! ولم يمض إلا وقت قليل حتى أعلنت نتائج تحقيق «وهمي» قال فيها إن السنانيري انتحر! وفؤاد علام دائمًا وحتى هذه اللحظة يعلن براءته من قتل السنانيري ويصرّ على أنه انتحر! لكنني لا أصدقه ولا يمكن أن أصدقه، فقد كنت في السجن نفسه وفي الزنزانة المجاورة له. وقد رأيته بنفسي ورأيت توقيعاته، وحين ذهبت إلى مستشفى السجن في هذا الوقت قابلت قائد المستشفى وهو ضابط، وعلمت منه أنه رأى توقيعات فؤاد علام بخط يده على كل ما كان يحدث في السجن من انتهاكات لحقوق البشر ومن تعذيب وإيذاء نفسي وبدني حقير.

وما قاله فؤاد علام في واقعة استشهاد السنانيري متناقض ويؤكد كذب القول بانتحاره... فهو يقول أحيانًا إن السنانيري شنق نفسه بحزام قماش كان يربط به بنطلونه في كوع حوض الماء الذي يغسل فيه يديه داخل زنزانته! وهذا كلام لا يقبله عقل فلا يمكن أن ينتحر إنسان بحزام قماش مهترئ وفي حوض ماء ارتفاعه لا يزيد على متر واحد! وحين شعر بتهافت روايته قال إنه ربط رقبته بملاءة سرير وعلقها بسيفون كان في أعلى الحوض ووقف على كرسي ثم أزاحه فشنق نفسه ومات! وهذا كلام تافه وساقط أيضًا إذ لم يكن في الزنازين أي سيفون كما يصعب تخيل وجود كراسي داخلها.

ومهما قال فؤاد علام وزبانية التعذيب فلن أصدق أن رجلًا مؤمنًا زاهدًا قوي

الإيمان والصبر مثل الأستاذ كمال السنانيري يمكن أن ينتحر فيكفر بالله! لقد صبر الرجل عشرين عامًا في سجون عبد الناصر ولم تفتر له همة ولم تلن له قناة ولم يخضع للطغاة... وأوذي بأشد وأعنت مما لاقاه من تعذيب في السجن الذي مات فيه ولم نسمع أنه اشتكى أو فقد صبره... لقد كان - رحمه الله - مثالًا في الثبات والصبر لإخوانه ولا أتصور مطلقًا أن يفقد يقينه بالله وهو الذي قضى عمره كله مجاهدًا أسيرًا صابرًا محتسبًا... ما أثق فيه أن الرجل وقع عليه من العذاب الكثير خاصة أنه كان مسئولًا عن ملف القضية الأفغانية الذي أثار خوف الأجهزة الأمنية، وأنهم لما يئسوا منه قتلوه تحت التعذيب ثم اختلقوا قصة انتحاره - رحمه الله.

حوارات في السجون مع دعاة العنف

وكان أول المفرج عنهم من الإخوان المتحفظ عليهم الأستاذ عمر التلمساني والأخ جابر رزق في يناير ١٩٨٢ في حين بقينا نحن إلى نهاية العام تقريبًا، وكان الرئيس مبارك قد تولى الحكم وقام باستقبال كل القوى السياسية في البلاد ولكنه رفض أن يدعو الأستاذ عمر التلمساني لهذا اللقاء... وكان ذلك مؤشرا سلبيًّا أكّد لنا أن الدولة لن تتعامل معنا مستقبلًا بطريقة جيدة.

وأثناء الاعتقال بدأت الدولة فكرة الحوار مع الشباب الإسلامي المؤمن بالعنف، فكانت تستدعي عددًا من العلماء ورجال الأزهر للحوار مع الشباب المعتقلين المتهمين بالانتماء لتنظيمات مسلحة، وأعدت الحكومة جدول محاضرات لهذه الحوارات، لكن معظم هؤلاء العلماء كانوا يسيئون كثيرًا في حديثهم وكانوا رسميين يمثلون وجهة نظر السلطة، ولم يكن لهم أدنى قبول عند الشباب المعتقل بل كانوا منفرين لهم!

ومع ظهور سلبية هذه الحوارات ونتائجها العكسية اتصل وزير الداخلية بالأستاذ عمر التلمساني معاتبًا بأنه ليس له دور في إصلاح عقول هؤلاء الشباب، فرد عليه الأستاذ عمر مؤكدًا أنه على استعداد أن يذهب لهؤلاء الشباب في المعتقل ويتحدث معهم ويحاورهم في قضية العنف... وبالفعل جاء الأستاذ عمر إلى ليمان طرة

محاضرًا، والتقى بالشباب من الاتجاهات الإسلامية المختلفة، وكان له أثر كبير فيهم حيث لم يكونوا ينظرون إليه كعالم سلطة أو من المحسوبين عليها خاصة أنه قد سبقهم إلى الاعتقال!

ورغم تأثيره الكبير في الشباب وربما بسببه أوقفت السلطة زيارة الأستاذ عمر ولقاءاته، ربما خشية أن ينضم هؤلاء الشباب إلى الإخوان، وكانت هذه آخر مرة يلتقي فيها الأستاذ عمر بالمعتقلين من الشباب.

في عنبر واحد مع قتلة السادات!

بعد ذلك نقلت إلى ليمان طرة الذي وصلته ليلًا، وكان قائد السجن المقدم محمد مرسي، وقد أراد أن يدخلني عنبر «التجربة» وهو عنبر كان محجوزًا فيه قتلة السادات. وحين أخبرته أنني من المتحفظ عليهم في قرار التحفظ الشهير وأنني لست محبوسًا على ذمة قضية وليس محكومًا عليَّ، أصرّ على إدخالي هذا العنبر، وعاملني بعنف، وقال لي إن الأوامر عنده بذلك، وكنت قد ظننت أنني إذا وضعت معهم في الزنزانة نفسها فسوف يفتح التحقيق مرة أخرى في قضية السادات وتتم محاكمتي معهم.

أدخلت عنبر «التجربة» وكان معي في الزنزانة من نزلائه الشيخ عمر عبد الرحمن مفتي الجماعة الإسلامية، وناجح إبراهيم وكرم زهدي وآخرون من قادة الجماعة وحين علموا بشخصي رحبوا بي ترحيبًا شديدًا.

وظللت معهم في العنبر نحو ٢٠ يومًا، وكان مسئول هذا العنبر الضابط محمد عوض، وقد علمت منهم أنهم ينوون ضربه لأنه كان ممن يعذبونهم أثناء التحقيقات، فحاولت إثناءهم عن هذا العزم الذي سيزيد الأمور سوءًا في السجن، ويبدو أن الشيخ عمر عبد الرحمن لم يكن موافقًا على هذا الإجراء العنيف، ولكنهم لم يأخذوا برأيه، ويبدو أيضًا أن المتحمس بينهم كان هو الذي يقود الآخرين إلى أي رأي يتخذونه، فيما يعد من يعارض مثل هذه القرارات متخاذلًا، وكانت كل أمورهم تؤخذ بهذا الشكل.

وبالفعل نفذوا ما عزموا عليه، فحين أتى الضابط محمد عوض مساء إلى الزنزانة لأخذ التمام أمسكوا به وأخذوا يضربونه ضربًا عنيفًا، وهو يستغيث حتى جاءته النجدة من مسئولي السجن والحراس الذين خلصوه من بين أيديهم... وبعد هذه الواقعة تحول العنبر إلى نار الله الموقدة!

كنا نخرج صباحًا في طابورين ومعنا دلو للبول ودلو آخر للماء النظيف، وكان يفرض علينا أن نذهب إلى دورة المياه ونعود في دقيقتين فقط! وأثناء تلكم الدقيقتين نأخذ وجبة ساخنة من الضرب ذهابًا وإيابًا، وكنت - على الرغم من أنني لم أشاركهم الفعل - لا أستثنى من هذا الضرب إلا عندما يكون الضابط محمد عوض موجودًا، حيث كان يمنع العساكر من ضربي وإهانتي لأنني لم أكن ممن اشترك في موقعة الاعتداء عليه... وظللت على ذلك الحال أسبوعًا كاملًا حتى انتقلت إلى عنبر المعتقلين الآخرين.

وأثناء وجودي مع معتقلي عنبر «التجربة» حدثت مناقشات وحوارات حول قضية التغيير ومنهج العمل الإسلامي، وكان رأيهم أن العنف هو الطريق الوحيد للتغيير ولا طريق سواه، وأنه لن يمنعهم فشل التجربة من أن يكرروها مرة أخرى.

وأتصور أنه بسبب تلك النقاشات بدأ بعضهم يتراجع عن ذلك الفكر المتشدد، وأذكر منهم الدكتور محمد طارق طبيب الأسنان، وكان يحب الجلوس معي بمفرده كي يتحدث في جدوى ذلك الفكر المتطرف، وقد علمت - بعد ذلك - أنه انفصل عنهم وقضى بقية مدة عقوبته «عشرين عامًا» في سجن مزرعة طرة بعيدًا عنهم.

الفصل التاسع

إعادة بناء جماعة الإخوان بعد حادث المنصة

قضينا - معظم من اعتُقلوا من الإخوان وخاصة أبناء جيلي - نحو عام في المعتقل، فلم نخرج إلا في سبتمبر من عام ١٩٨٢، وكان أول ما شغلنا بعد الخروج من المعتقل هو البدء في إعادة تنظيم جماعة الإخوان من جديد والاهتمام بالبناء الداخلي، وهو ما شرعنا فيه فور الخروج مباشرةً، خاصة أن نظام الرئيس حسني مبارك لم يغلق الباب مباشرة في وجه الإخوان؛ فقد استمر نشاطنا قويًّا إلى نهاية عقد الثمانينيات تقريبًا، وإن كنا على قناعة - وقت خروجنا - أن عصر السادات لن يعود بما كان فيه من انفتاح وحرية في العمل والتنظيم السياسي.

يمكن القول إن الدكتور أحمد الملط هو أبرز من حملوا عبء هذه المرحلة وتولّوا عملية إعادة البناء، وكان أول ما فعله - رحمه الله - الاتصال بمجموعتنا التي كانت ناشطة في قيادة الجماعة الإسلامية في الجامعات المصرية، وكان كلامه واضحًا في أن الأولوية هي لإعادة البناء الداخلي وهو ما بدأ العمل فيه على قدم وساق تحت مسئوليته مباشرة بعد أيام قليلة من خروجنا من المعتقلات، وقد كنت على رأس تلك المجموعة المسئولة عن إعادة البناء وترتيب صفوف الجماعة التي اهتزت كثيرًا بعد أحداث سبتمبر ١٩٨١.

وقد أطلق على مجموعتنا «مكتب مصر» تمييزًا عن التنظيمات القطرية للإخوان خارج مصر، ووضعنا خطة لتقسيم القطر المصري إلى قطاعات، فكان الأخ ممدوح

الدّيري هو مسئول شرق الدلتا، والأخ إبراهيم الزعفراني مسئول غرب الدلتا، والأخ أنور شحاتة مسئول وسط الدلتا، والأخ محمد حبيب مسئول قطاع الصعيد، والأخ السيد عبد الستار المليجي مسئول القاهرة... ولحق بنا في هذه المجموعة الأخوان جابر رزق وإبراهيم شرف - رحمهما الله. ثم بدأنا في ترتيب المكاتب الإدارية للجماعة في كل محافظات مصر والتي تنقسم إلى مناطق وشُعب، مع التركيز على تعميق وتقوية التنظيم ووضع القواعد الإدارية التي تضمن فاعليته وكفاءته وانسجام تكويناته وتراتبيته، وهو عمل استغرق الجهد الأكبر من نشاط الجماعة ما يقرب من سنوات متواصلة، فلم يأت عام ١٩٨٧ حتى تبلور التنظيم وظهر بشكله الضخم واستقر النظام الإداري للجماعة.

وفي هذه الأثناء كان هناك جهد موازٍ في ترتيب الجماعة على المستوى الخارجي، فبعد تولي مكتب مصر مسئوليته عن القطر المصري تحت إشراف الدكتور أحمد الملط، تفرغ الأستاذ مصطفى مشهور - رحمه الله - للتنظيم خارج مصر؛ فكان صاحب الجهد الأكبر في تأسيس التنظيم الدولي وهيكلته ووضع لائحته التي صدرت في مايو من عام ١٩٨٢، وكان أبرز الإخوة الذين ساهموا في بناء التنظيم الدولي وتنشيط عمله الأستاذ مهدي عاكف المرشد السابع والمهندس خيرت الشاطر والدكتور محمود عزت، وكانوا جميعًا قد خرجوا من مصر قبيل اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ وبعدها واستمروا في الخارج حتى عام ١٩٨٦.

استقرار جماعة الإخوان المسلمين

أذهب إلى القول بأن جماعة الإخوان المسلمين لم تستقر فكرًا وتنظيمًا على الصورة التي نراها عليها الآن إلا عام ١٩٨٩ على الأرجح وهو العام الذي أجريت فيه أول انتخابات لاختيار مسئولي الجماعة بعدما كانوا يتولون مناصبهم - في كل القطاعات تقريبًا - بالتعيين، وأن الحسم على المستوى الفكري والتنظيمي بما يرسم الصورة التي عليها الآن مرّ بعدة محطات وأحداث تاريخية مهمة.

فإذا تكلمنا عن الموقف من التكفير فسنجد أنها حسمته مبكرًا مع أول فتنة تكفير واجهتها بعد اعتقالات عام ١٩٦٥، في هذه الفترة الحالكة من تاريخ الجماعة وقعت فتنة التكفير بعدما تعرض كثير من شبابها للظلم والتعذيب والقهر في سجون العهد الناصري، فتغذى بعض الشباب من كتابات الشهيد سيد قطب ثم أضافوا إليها رؤيتهم الخاصة فخرج ما عرف بالتيار القطبي ثم تيار التكفير والهجرة كما تجسدت في تنظيم جماعة المسلمين الذي أسسه الشاب شكري مصطفى الذي كان سجينًا مع الإخوان.

والحق أن التاريخ سيشهد بفضل الأستاذ المستشار حسن الهضيبي مرشد الجماعة وقتها والذي تعالى على جراح التعذيب والتنكيل وتصدى لفتنة التكفير التي بدأت في السجون، فأصدر كتابه المرجع «دعاة لا قضاة» حيث استعاد منهج الإمام المؤسس الشهيد حسن البنا - رحمه الله - مؤكدًا أن منهج الجماعة هو دعوة الناس وليس القضاء فيهم، وأنها لا تكفر مسلمًا مهما كان جرمه حتى لو طالها أذاه مثلما حدث معها في السجون الناصرية، وقد حسم فيها حسن الهضيبي - رحمه الله - موقف الجماعة نهائيًّا وللأبد في قضية التكفير، وأحسب أنها كانت القاضية في هذه القضية فتطهر منها الصف الإخواني من دون رجعة.

كان موقف الجماعة من قضية التكفير حازمًا وحاسمًا وفوريًّا بعكس موقفها من قضية العنف والذي تأخر وتم بطريقة تدريجية وعملية وليس بمراجعة أو موقف واضح ونهائي كما في قضية التكفير، ويمكن القول بأن النقاشات التي دارت في بداية عام ١٩٨٤ تمهيدًا لحسم الموقف من المشاركة في الانتخابات البرلمانية كانت مهمة في نقل وجهة الحركة باتجاه التيار السلمي في التغيير الذي تزعمه أستاذنا عمر التلمساني على حساب بعض القادة الذين لم يكن لديهم رفض مبدئي لفكرة استخدام العنف على الرغم من عدم لجوئهم إليه فعليًّا.

وأتصور أن نبذ فكرة استخدام العنف تم داخل الجماعة تدريجيًّا ومع دخولها في العمل العام حتى انحسرت تمامًا إلا - ربما - في قناعات مستترة لبعض الأفراد القليلين الذين لا يجدون سبيلًا لنشرها داخل الجماعة فضلًا عن الدعوة إليها علانية،

وقد تم هذا الحسم بتدرج وهدوء ولم تضطر الجماعة فيه إلى تكرار ما فعله الأستاذ حسن الهضيبي مع فتنة التكفير في نهاية الستينيات.

أما القطع مع العمل السري وحسم قضية علنية الجماعة ورفضها للسرية فقد تم بشكل رسمي ومكتوب عام ١٩٨٧، حيث اجتمعت كل قيادات الجماعة من مسئولي المحافظات إلى أعضاء مكتب الإرشاد وتداولنا هذه القضية وظهر ما يشبه الإجماع على الإقرار بعلنية الجماعة ورفض العمل السري، وخرجنا وقتها بوثيقة رسمية مكتوبة عرفت باسم «جماعة الإخوان جماعة علنية»، أقرّ بها مكتب الإرشاد وأرسلت إلى كل أقسام الجماعة ومكاتبها الإدارية للالتزام بما جاء فيها.

لقد كان النصف الأول من عقد الثمانينيات - في رأيي - امتدادًا لعهد السادات؛ عهد الانفتاح وحرية العمل والتنظيم السياسي، فكان حاسمًا في بناء جماعة الإخوان المسلمين واستقرار منهجها الفكري واستراتيجية عملها وصورتها لدى الرأي العام ولدى قواعدها أيضًا، وقد شهدت سنواتها القطع في قضايا كثيرة كانت غير واضحة من قبل مثل الموقف من العنف والعمل السري، كما شهدت وضع القاعدة الصلبة للتنظيم الإخواني وتحديد قواعده الإدارية ومناهج التكوين والتربية ورسم مسار حركته. وهو ما أهّل الجماعة للانطلاق بقوة وملء فراغ العمل العام في مصر والعالم العربي، على الرغم من أن عقبات كثيرة بدأت تظهر في الأفق كان من شأنها أن تعرقل سير الجماعة وحركتها.

علماء الجماعة وشيوخها

ومما يجب التوقف عنده كثيرًا عند حديثنا عن استقرار رؤية الجماعة ووضوح منهجها الفكري موضوع علماء الجماعة وشيوخها، فعلى خلاف ما يتصوره البعض لم تعرف الجماعة في هذه الفترة ما يمكن أن نسميه بجناح أو تيار المشايخ والعلماء، وإنما كان لدى الجماعة علماء وشيوخ أجلّاء ظلوا طوال فترة إعادة بناء الجماعة جزءًا من نسيج حركتها وبنيانها الفكري والتنظيمي، ولم نشهد في حركتنا ونقاشاتنا الطويلة التي قضيناها في إعادة البناء خلافات ذات وزن تؤشر إلى أن هناك انفصالًا

بين الشيوخ والعلماء وبين الحركيين أو إخوان العمل العام. اللهم إلا مواقف قليلة بل نادرة جدًّا أشهرها ما حدث مع الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد.

كنا قد حسمنا أمرنا بالدخول في تحالف مع حزبي العمل والأحرار عرف بـ«التحالف الإسلامي» في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٨٧، وقد رشح حزب العمل على قائمته بإحدى دوائر محافظة الجيزة امرأة هي السيدة عزيزة سند، وكان الموقف المبدئي للإخوان هو الترحيب بهذا الترشيح وعلى أن يضم الإخوان امرأة في قوائمهم لما يعنيه ذلك من مواجهة الاتهامات التي تطلقها التيارات العلمانية وتشيع فيها أن الإخوان أعداء للمرأة وسيقفون ضد مكاسبها، لكن الشيخ عبد الستار فتح الله سعيد وهو أستاذ للتفسير في جامعة الأزهر من قدامى الإخوان وكان عضوًا بمكتب الإرشاد وقتها رفض الأمر تمامًا وبقوة، وساق جميع الآراء الشرعية التي تعارض مشاركة المرأة بالبرلمان.

والحقيقة أن ما ساقه فضيلة الشيخ عبد الستار في المسألة كان أقرب لرأي شرعي يقبل المراجعة، فهو غير مجمع عليه كما أن كثيرًا مما طرحه من حجج شرعية كان مردودًا عليها. وكنت ممن عارضوا رأي فضيلته، فعرض عليه الإخوان في مكتب الإرشاد تكوين لجنة من علماء الشريعة تدرس القضية ثم تخرج بعدة آراء يختار منها مكتب الإرشاد ما يراه مناسبًا للجماعة، إلا أن فضيلته رفض الاقتراح وقال إن الرأي الراجح الذي ستراه اللجنة هو الذي يجب أن يلتزم به مكتب الإرشاد وإنه سيكون ملزمًا للجماعة، وهو ما قوبل بالرفض.

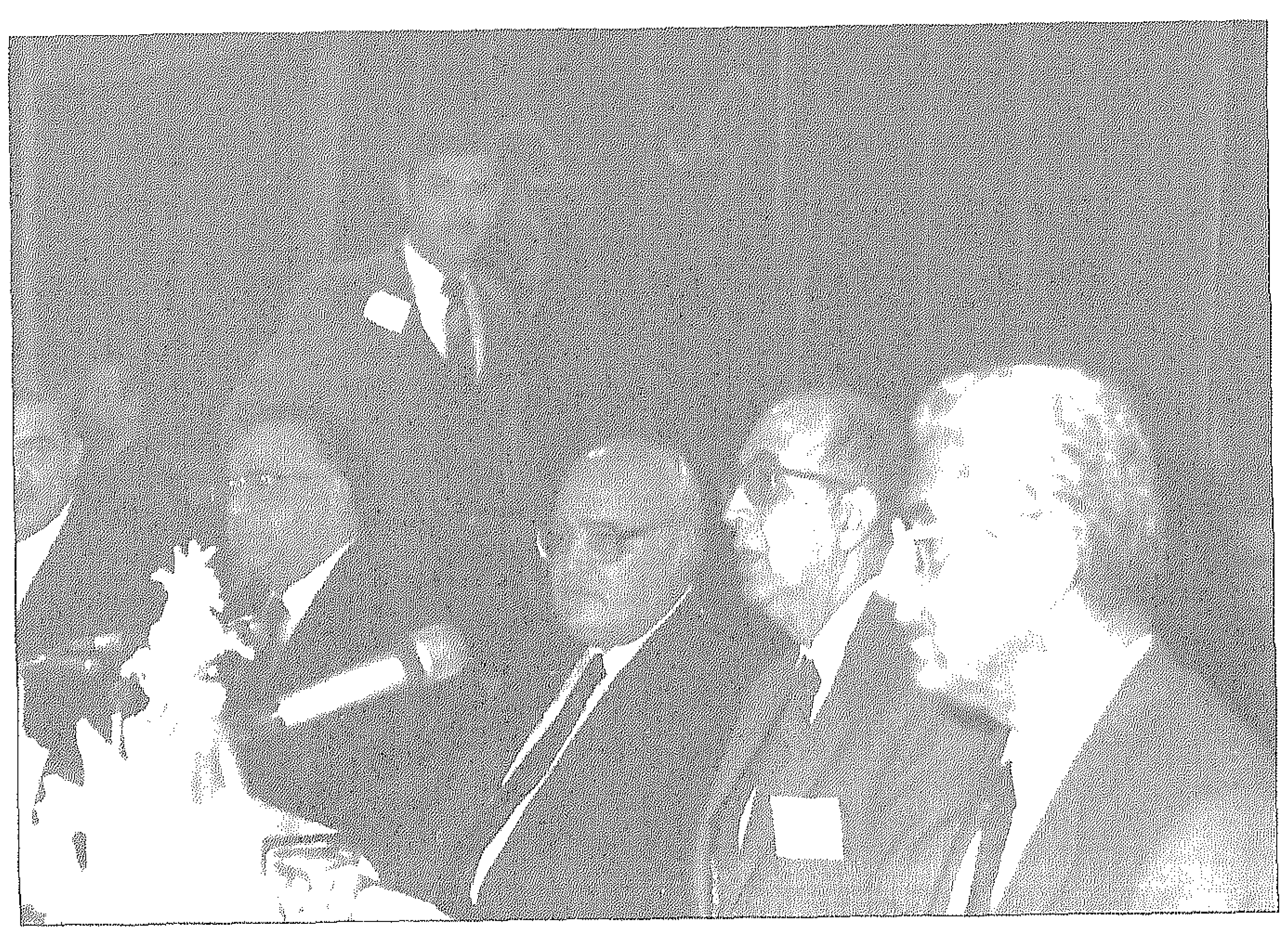
كنت ممن عارضوا رأي الشيخ عبد الستار فتح الله، وكان من أشد معارضيه ومن تولى الرد عليه الأستاذ المستشار مأمون الهضيبي - رحمه الله - وكان مشرفًا على القسم السياسي وقتها (تولى منصب المرشد السادس للجماعة)، كنا نرى أن جماعة الإخوان ليست ملزمة بمذهب فقهي أو برأي شرعي محدد لا تتجاوزه إلى غيره؛ بل يسعها ما يسع الإسلام، وأن الأفضل في قضية ترشيح المرأة للبرلمان أو عملها بالسياسة أن نوسع المسألة ونعرضها على فقهاء وعلماء من هيئات ومؤسسات دينية

معتبرة حتى من خارج الجماعة، ونسمع لما تراه في القضية المثارة ثم نأخذ بما يناسبنا طالما وسعه الشرع.

ولكن الشيخ عبد الستار فتح الله رفض رأينا وأصر على موقفه، بل تطور الأمر إلى أن قدم استقالته من مكتب الإرشاد! وقد ظل - حفظه الله - متمسكًا برأيه مخلصًا له، وتجددت معارضته حين رشح الإخوان الأخت چيهان الحلفاوي (زوجة الأخ إبراهيم الزعفراني) في الانتخابات البرلمانية عن دائرة الرمل بمحافظة الإسكندرية عام ٢٠٠٠، ثم عاد مجددًا لينتقد هذا الموقف حين رشح الإخوان الأخت مكارم الدّيري (زوجة المرحوم الأخ إبراهيم شرف الذي عمل سكرتيرًا للمرشد) في الانتخابات الأخيرة ٢٠٠٥ عن دائرة مدينة نصر بالقاهرة، وانتقد بحدة هذا العمل حتى في خطبة الجمعة بالمسجد الذي يؤم الناس فيه، على الرغم من أنه ما زال واحدًا من جماعة الإخوان وأن استقالته كانت من مكتب الإرشاد فقط وليس من عضوية الجماعة.

وقد كانت الواقعة مهمة جدًّا في تأسيس منهج للتعامل مع القضايا التي يختلط الشرعي بالسياسي فيها، فحين بدأنا النقاش عام ١٩٩٤ لإصدار الوثيقة الشهيرة عن موقف الإخوان من الشورى والتعددية الحزبية وعمل المرأة في السياسة، وكان المستشار مأمون الهضيبي وقتها مسئولاً عن القسم السياسي، انتهينا في مكتب الإرشاد إلى دعوة مجموعة من علماء الشرع لحضور مناقشات القسم السياسي في الجماعة مع عدد من أعضاء مكتب الإرشاد وإدارة حوار موسع حول هذه القضايا خاصة قضية التعددية وإمكانية قبول الجماعة بالتعددية الحزبية، وقد دام هذا الحوار وقتًا طويلًا نوقشت فيه قضايا أخرى مثل قضية الأقباط وكان ممن حضروه فضيلة الشيخ طه ريان عميد كلية الشريعة آنذاك مع الإخوة من القسم السياسي عصام العريان وعبد الحميد الغزالي (الأستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة).

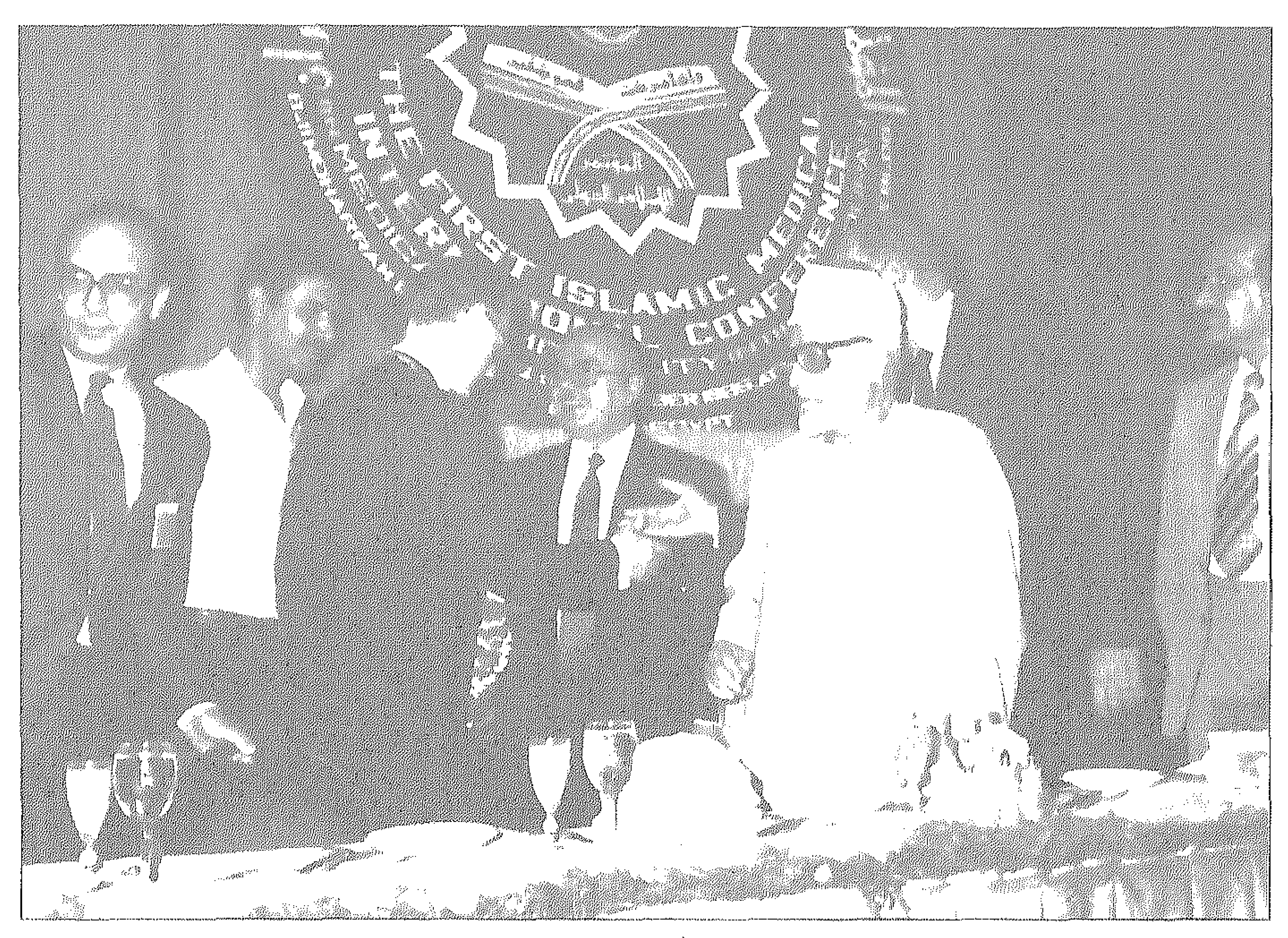
ملحق الصور



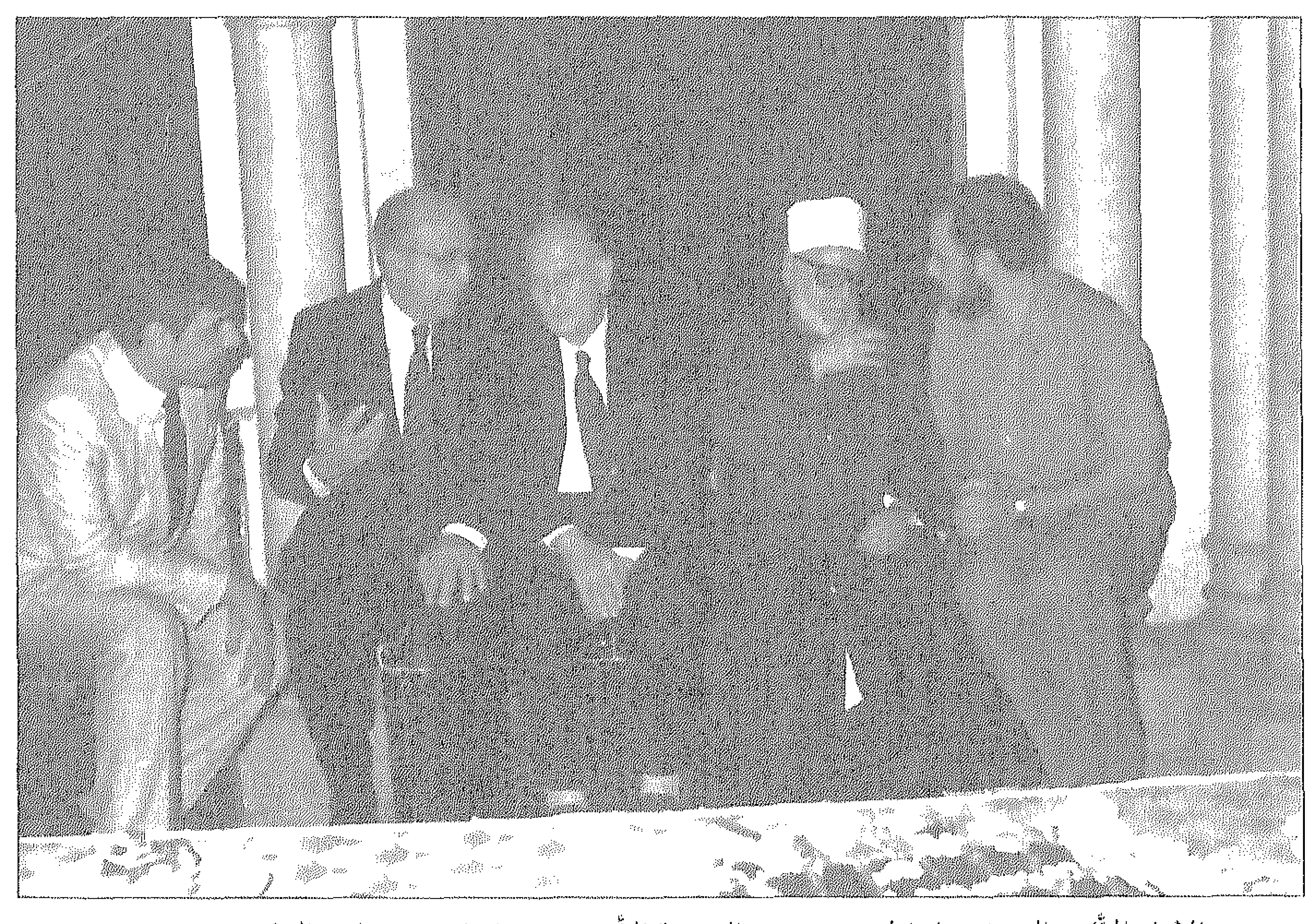
في لقاء مع رئيس الوزراء الأسبق د. عاطف صدقي.



مع وزير الدفاع الأسبق المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة وفي الصورة كمال حسن علي رئيس الوزراء الأسبق ومصطفى كمال حلمي رئيس مجلس الشورى السابق



في مؤتمر طبي دولي بحضور الإمام الأكبر الراحل الشيخ جاد الحق علي جاد الحق



مع الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق ووزيري الصحة الأسبقين د. إبراهيم بدران والدكتور ممدوح جبر

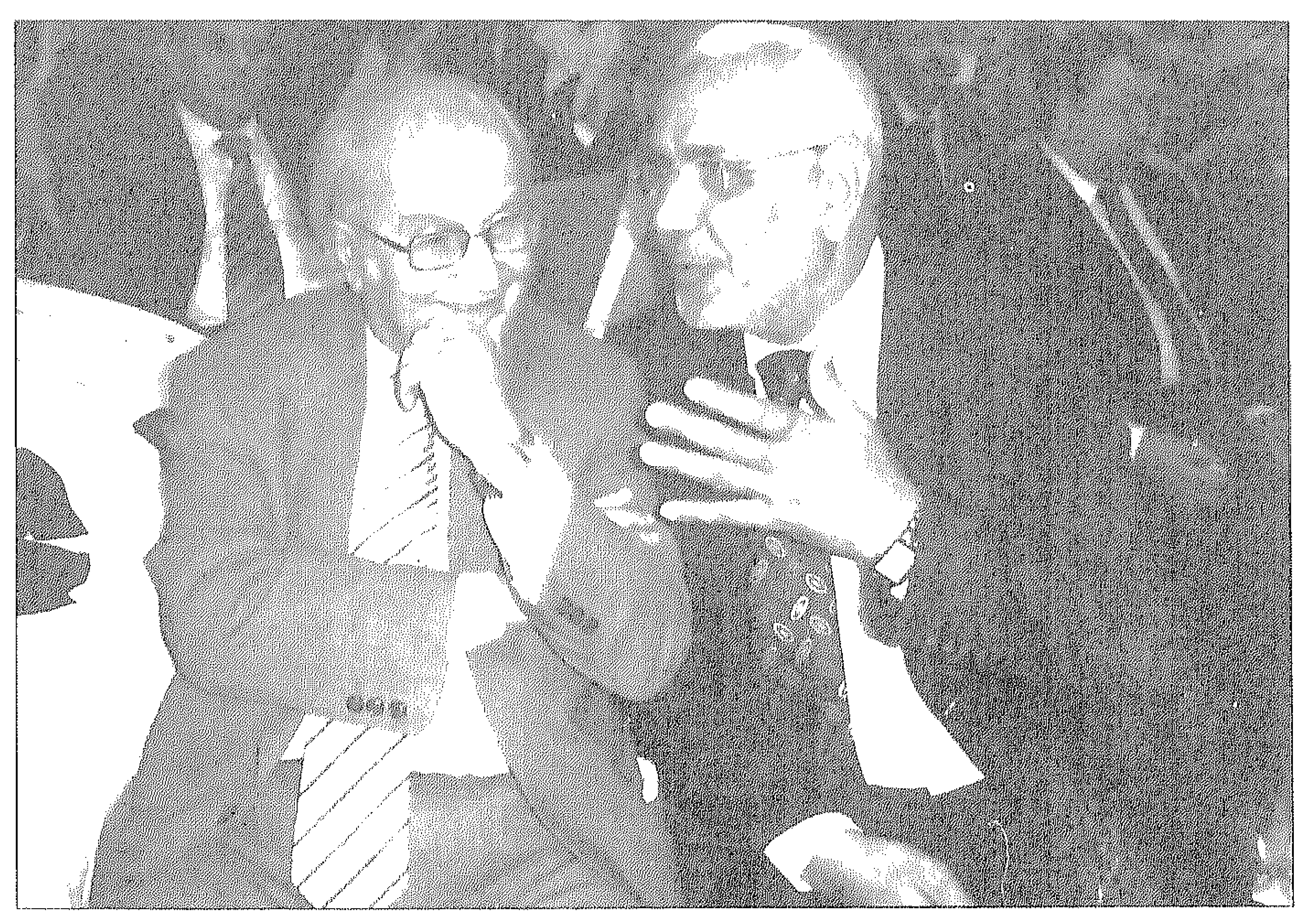


مع السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية

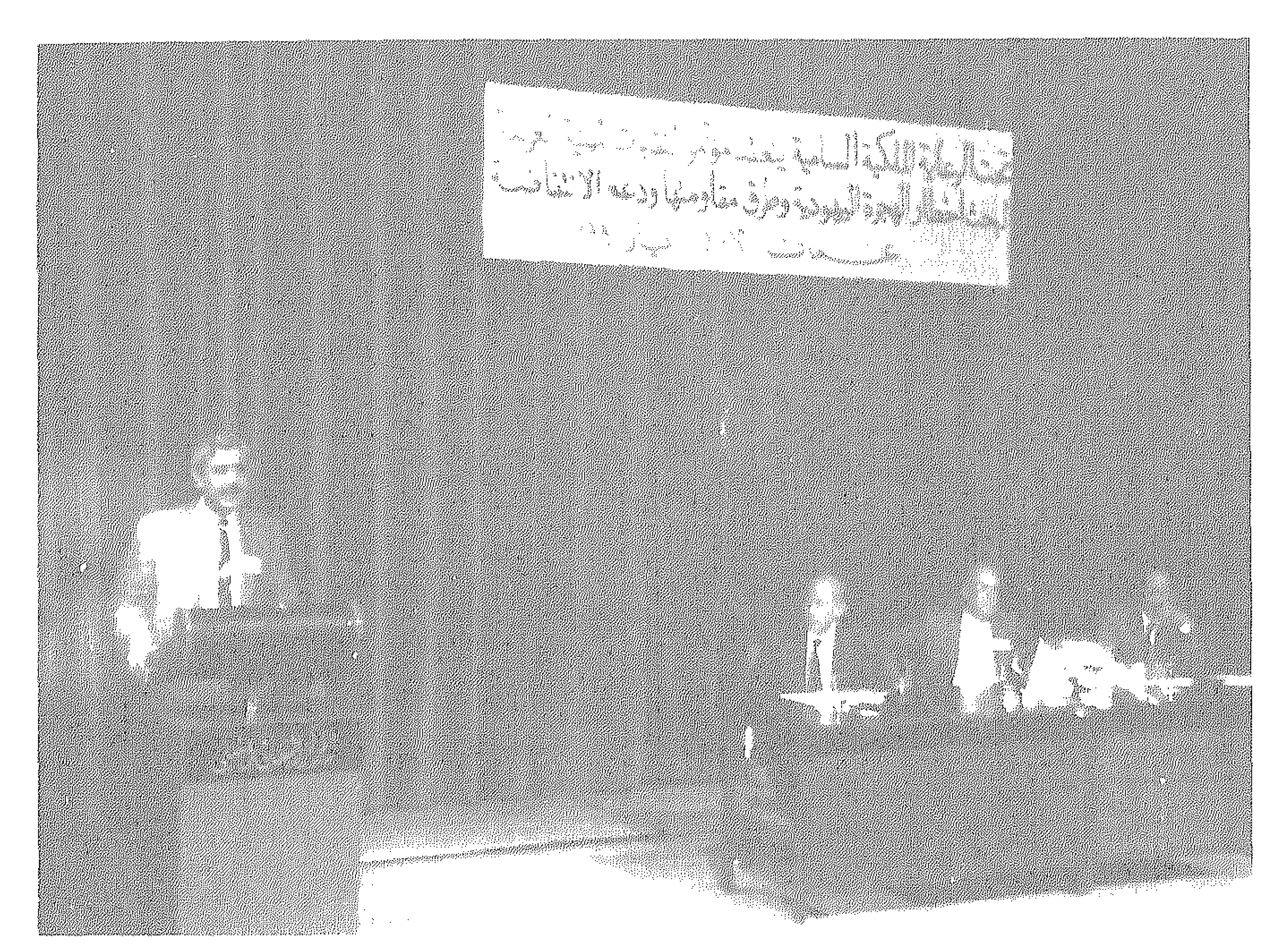




مع الفريق يوسف صبري أبو طالب



مع نقيب الأطباء د. حمدي السيد



في مؤتمر النقابات المهنية العربية بعمان لدعم الانتفاضة



مع قيادات من نقابة أطباء مصر



مع رسام الكاريكاتير الفنان مصطفى حسين



مع الأديب جمال الغيطاني

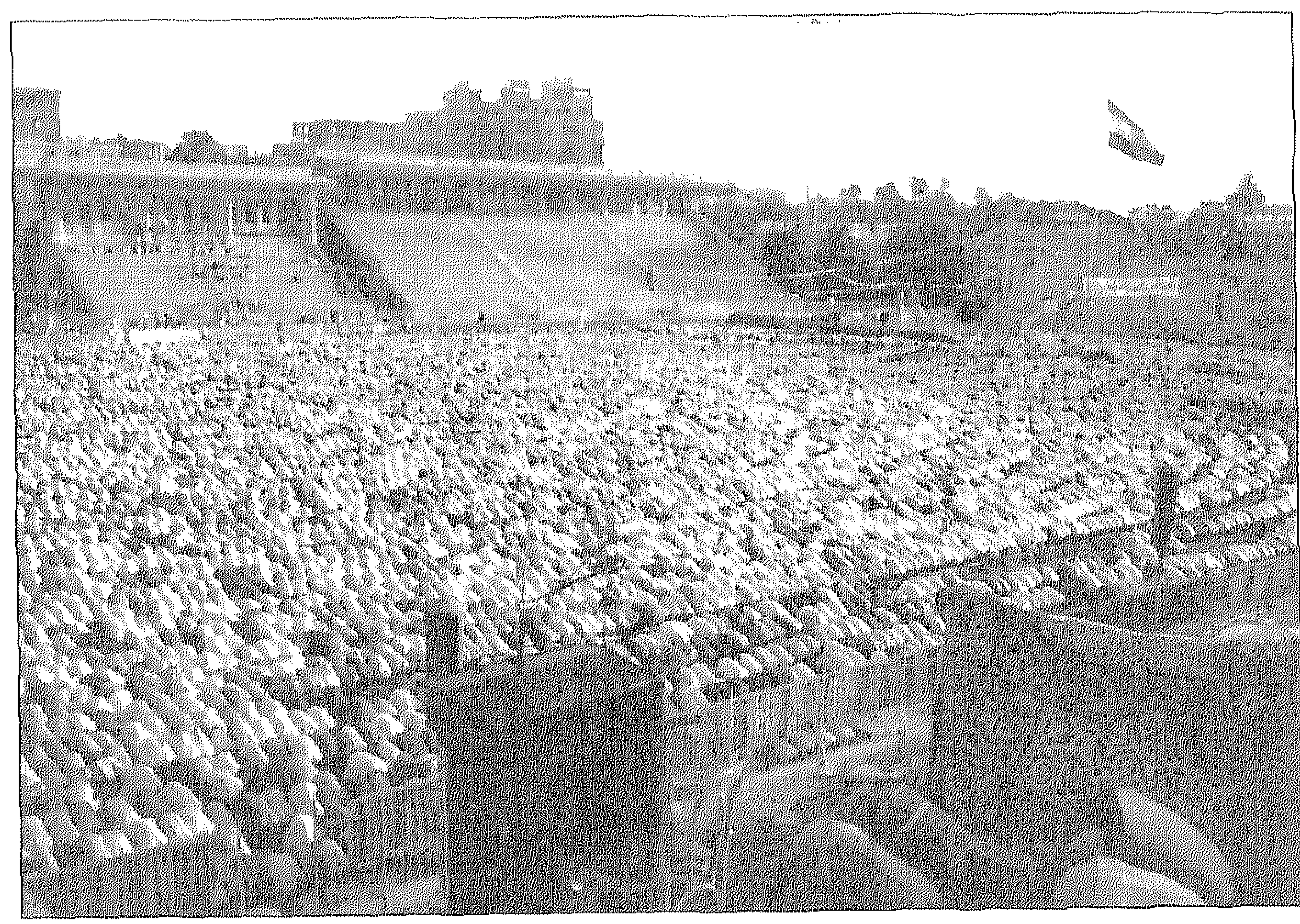


مع فضيلة الشيخ القرضاوي والمرشد الأسبق مأمون الهضيبي



يلقي كلمته في احتفال نقابة الأطباء بيوم الطبيب المصري الثاني عشر





صلاة العيد في الساحات التي كانت تقيمها الجماعة الإسلامية



عبد المنعم أبو الفتوح

شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر

١٩٧٠-١٩٨٤

«إن شهادة الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح تثير الشهية للتفكير والبحث»

المستشار طارق البشري

الشخص والفكرة واللحظة التاريخية، هي ثلاثة عناصر تجعل من شهادة عبد المنعم أبو الفتوح على تأسيس الجماعات الإسلامية في سبعينيات القرن الماضي واحدة من أهم الشهادات على مصر المعاصرة.

فلأنه عبد المنعم أبو الفتوح أبرز القيادات الطلابية الإسلامية في جيله، ولأنها حركة تأسيس الجماعات الإسلامية في الجامعات التي تمثل واحدة من أهم مراحل العمل الإسلامي الحركي في تاريخ مصر، ولأنه جيل السبعينيات أقوى أجيال الحركة الطلابية المصرية وأكثرها حيوية وما زالت - إلى اليوم - تضخ الدماء في حياتنا السياسية التي تنازع الحياة؛ لأجل هذا كله تبدو هذه الشهادة مفتاحًا مهمًا لفهم مرحلة مهمة في تاريخ مصر مازلنا نعيشها أو نعيش بعض آثارها وما تركته فينا من تغيرات بعضها يبدو جذريًا يعد ممكنًا تجاوزه؛ وأعني بها ظاهرة «الصحوة» الإسلامية التي تركت بصماتها على وجه مصر.



6 221102 027106